
من قصص الجاسوسية
العالمية
مدحة الجادر
منشورات مكتبة الفكر العربي - بغداد المنصور هاتف ٥٥٢١١٤٢

اشتريته من شارع المتنبي ببغداد
في 23 / ذو القعدة / 1445 هـ
الموافق 31 / 05 / 2024 م

سرمد حاتم شكر السامرائي



من قصص الجاسوسية العالمية

الطبعة الاولى بغداد ١٩٨٤

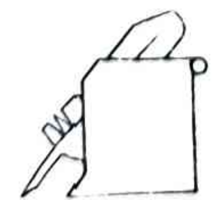
رقم الايداع في المكتبة الوطنية ببغداد ٥٦٠ لسنة ١٩٨٤

تم تنضيد حروف هذا الكتاب الكترونيا في مطابع الدار العربية للطباعة - بغداد

مطبعة الديواني - بغداد
هاتف : ٨٨٧٦١٩٧

من قصص الجاسوسية العالمية

مدحة الجادر



منشورات مكتبة الفكر العربي - بغداد المنصور هاتف ٥٥٢١١٤٢

مقدمة

الجاسوسية الفردية ، التي يحصل فيها شخص معين على بعض المعلومات ، ومن شأنها تغيير مصير معركة من المعارك ، يجب أن تكون قديمة قدم الحرب نفسها . ولكن الجاسوسية الجماعية ، المنظمة تنظيماً علمياً في شكل أجهزة خاصة ، دائمة ، انما هي من ثمرات العصر الحاضر .

على أن هذه الجاسوسية الجماعية لها بعض الجذور القديمة . وأقدمها ذلك التنظيم الذي وضعه ييلوي جتساي ، رئيس وزراء جنكيزخان ، والمنشئ الحقيقي للامبراطورية المغولية الواسعة . لقد اعتمد جنكيزخان في انتصاراته على أمواج من فرسان التتر ؛ ولكنه لم يكن يعرف شيئاً عن الاقطار التي يروم غزوها . وعلى ذلك ، قام جتساي بارسال التجار والحجاج الى كل قطر في آسيا وأوربا . فكان هؤلاء يرسلون اليه التقارير المفصلة ، من خلال شبكة مواصلات دقيقة ، عن الاقطار التي يقيمون فيها . وقد شملت تقاريرهم عدد السكان بصورة تقريبية ، والقوات النظامية لدى الامراء ، ونوع أراضي المنطقة ، وما فيها من موانع طبيعية ؛ وفي ضوء هذه المعلومات قام جنكيزخان بحملاته في القرن الثالث عشر ؛ متحاشيا ، عن معرفة ، الاصقاع الوعرة ، العميقة ، التي يعجز فيها فرسانه عن المناورة .

وحين تطورت أسلحة القتال ، صار من الممكن لفئة صغيرة تحسن استخدامها ان تغلب فئة كبيرة . وعلى ذلك ، أصبح لزاما أن يعرف كل طرف ما لدى الطرف الآخر من أدوات الهلاك والدمار . واستلزم ذلك ايجاد دوائر خاصة تكون مهمتها جمع مثل هذه المعلومات في اوقات المسلم والحرب . ولكن الجاسوسية ، يومئذ ، كانت عملا شائنا يأنف منه الكثيرون ، ولاسيما أهل الخبرة والاختصاص ، ممن يستطيعون تقييم مثل تلك الأدوات المهلكة . فاضطرت دوائر التجسس ، آنئذ ، الى تجنيد ذوي السمعة المشبوهة من المجرمين ، والمحتالين ، وغير الاكفاء من كل من هب ودب ، للقيام بهذه المهمة الدقيقة ، الخطرة . وبالطبع . لقد كان هؤلاء

الأوباش رائدهم المغامرة والمال ، ولم يدخل في حسبانهم خـدمة الاوطـان . واذا حدث أن حصلوا على معلومات لمصلحة جهة معينة ، ثم دفعت له جهة أخرى ثمنا أكبر ، سلموا معلوماتهم الى هذه الجهة الجديدة . وبمرور الزمن ، تجمع هؤلاء في منظمات دولية للتجسس ، لا تنتمي الى دولة من الدول ؛ وكان همّها الاول الحصول على مختلف الاسرار العسكرية والدبلوماسية ، والعلمية ، والتجارية ، ثم بيعها لمن يدفع المبلغ الأعظم . وكان من الطبيعي أن تتماشى وسائلهم مع غاياتهم في الدناءة والوضاعة . وقد اساء هؤلاء الى سمعة عمليـة الاستخبارات اساءة عظيمـة ؛ واستحقوا أقسى العقوبات التي قد تفرض عليهم .

ثم جاء دور الجاسوسية الوطنية ، التي ينبـرى فيها أشخـاص محترمـون لجمع المعلومـات عن الاعـداء الفعليـين والمحتملين ، خـدمـة لاوطـانهم . وهؤلاء لا يُؤجرون ، ولا يتاجرون بالمعلومات ؛ بل ينبعثون عن دوافع نبيلة ، قد تحملهم على عدم تقاضي أي أجر على خدماتهم .

كما انهم هم الذين أكسبوا عملية الاستخبارات ، حرمتهـا وأهميتها في الـوقت الحاضر .

ان فصول هذا الكتاب تدور حول أناس من هذا القبيل ـ اناس بذلوا في الحربين الماضيتين العظميين ، وما بينهما ، حياتهم وحرياتهم في سبيل اوطانهم ، وفي سبيل الاهداف التي يؤمنون بها . واذا شذ بعضهـم عن هذا المنحى ، فان ادراجه كان على سبيل الغرابة والطرافة .

مدحة الجادر

في الفخ

فرانز رنتلن فون كلايت ، من اشهر رجال استخبارات البحرية الالمانية ، في ابان الحرب العالمية الاولى . وقد بلغت أعماله التخريبية ضد الحلفاء درجة من الاتقان ، بحيث صارت تُعدّ من الفنون الجميلة . يصور ذلك ما سرده هو من انجازاته المذهلة في اوربا المحايدة ، وفي امريكا ، في ذلك الوقت .

وقد أبدى ذكاء مفرطا ، وموهبة في التنظيم ، منذ أن كان ضابطاً شاباً في البحرية . وعلى ذلك ، أرسل في سنة ١٩١٥ الى الخارج ، حيث نجح في تنفيذ سلسلة من المهام السرية ، ابرزها ما تم في الولايات المتحدة ، التي كانت آنئذ ماتزال محايدة . وكان صارما ، قديرا ، بارعا في التوقيت ؛ فأدّى ذلك الى اغراق عدد كبير من السفن التي تحمل الذخائر ، والمواد الحربية ، الى موانئ الحلفاء .

وفيما يلي يصف بقلمه نهاية خدمته السرّية :

لقد انتحلت ثانية شخصية السيد أي . في . كاشية ، من مدينة سولوثرن ، وحجزت مكانا على الباخرة نوردام التابعة لشركة الخط الهولندي ـ الامريكي . وكان بصحبتي مواطن أمريكي استخدمته ليساعدني أثناء السفرة ؛ فراح يتظاهر أمام الناس بأنه صديق لي .

صعدت الى الباخرة يملؤني اليأس والألم ، اذ أتذكر العمل الذي تركته ورائي دون أن يتمّ . وحين غادرنا ، في الغسق ، ميناء نيويورك ، رحت أجهد نفسي لافهم لغز البرقية التي أمرتني بالرجوع ؛ حتى انتشلني صاحبي من الكآبة التي غرقت فيها ، بأن أعلن أنه جائع ، وان وقت العشاء قد حان . كان قوي البنية ، وقد ألف عبور المحيط أكثر من مرة ، ليسدي النصح للحكومة الالمانية .

لقد ابتكر طريقة بارعة تعطيه وقتا للتفكير حين المباغتة . كان يتظاهر بأنه أصمّ ؛ ويحمل ، دائما ، سماعة اذن ضخمة . فكان على كل من يوجّه اليه سؤالا ، أن يُرعد به في هذه السمّاعة ، وهذا يوفّر له الوقت الكافي لتهيئة اجوبته .

هبطنا غرفة الطعام ، فطلبت نبيذا لأشتت افكاري البغيضة . ولكني ماكدت انظر حولي حتى تلقّيت مفاجأة . فعند المائدة المقابلة ، كان يجلس رجل ، عرفته في برلين . وهو من أسرة هولندية يدعى الكونت لمبرغ ستايرم . وكان لابدّ ان انتابني الشحوب ، لان صاحبي همس في أذني :

ـ ما خطبك ؟

وقبل أن أجيب ، أقبل الكوتت لتحيتي ، وسألني :

ـ أتظن انك ستعبر المحيط بسلام ؟

فتظاهرت بالدهشة ، وأجبت :

ـ ولم لا ؟

ـ حسنا ، بعد كل شيْ انك الماني !

ـ انا الماني ؟ يا للسماء ! انما انا سويسري . وقد كنت في تلك الايام مرتبطا بالمفوضية السويسرية في برلين .

فـراح الكوتت ينـظر الي في حيرة ، وظـل طوال السفـرة يحوم حـولي . انه ، بالطبع ، قد رأى اسمي المستعار على باب قمرتي ، وعلى مكاني من المائدة ؛ ولكنه كان واثقا من ان هذا لم يكن اسمي ، حين عرفني في برلين . وكنت كلّما رأيته تولاّني شعور غريب بأنه سوف يتذكر اسمي الحقيقي ؛ لذلك رحت اتحاشاه ، وابتعد عن طريقه .

وواصلت السفينة رحلتها على ما يرام ، حتى بدت اجرف انكلترا البيضاء . وقد استغرق العبور من امامها يوما كاملا ، كنت خلاله احدّق فيها بمشاعر مختلطة ، واجد من الضروري بين الفينة والاخرى ، ان ازور المقصف لاقوّي نفسي . وحين حلّت الساعة السابعة من صباح الثالث عشر من آب ، كانت الاجـرف البيضاء ماتزال على يسارنا ، وكنت انا في الحمام حين نقر عليّ الباب خادم وهو يقول :

ـ سيدي ، بعض الضباط البريطانيين يريدون التحدث اليك .

وكانت تلك احرج لحظة في حياتي . فما من أحد فعل ما فعلت في أمريكا ، وكان يحمل جوازا مزوّرا ، ويتخذ اسما مستعارا ، يتشوّق للتحدث الى ضباط بريطانيين ، وامام أجرفهم البيضاء . ولكن لم يكن لدي اي خيار ؛ فهؤلاء الكرام يرغبون في التحدث الي ، ولا مفرّ من ذلك . اخرجت رأسي ، واصخت السمع . لم يكن الضباط يفتشون سائر المسافرين ، بل سألوا عني فقط . ومن ذلك ، خمنت عـلى الفور ان امري قد اكتشف في الولايات المتحدة ، وان الشي الوحيد الذي يخرجني من هذه الورطة ، هو المراوغة والحيلة .

صعدت الى سطح السفينة برداء الحمام ؛ فوجدت في انتظاري ضابطين وعشرة بحّارة شاهري الحراب ! وبادرني احدهم :

ـ هل انت السيد كاشيه ؟

ـ نعم . ماذا استطيع ان افعل لكم ؟

ـ لدينا اوامر بأن نأخذك معنا .

ـ ولكني ذاهب الى روتردام، ولا أعتزم النزول هنا .

ـ اني آسف . اذا رفضت ، فلدينا اوامر بأن نأخذك بالقوة .

ـ اذا كنتم تهددونني بالقوة ، فليس لي كمواطن سويسري الآ ان استجيب لكم . بيد اني اطلب قبل مغادرة السفينة السماح لي بأن أبرق الى سفير بلادي في لندن ؛ ثم اني على كل حال ، يجب ان ارتدي ملابسي ، وان اتناول فطوري ، وانا واثق من موافقتكم .

ـ كم من الوقت تحتاج ؟

ـ حوالي الساعتين .

ـ حسنا . سوف نعود في التاسعة والنصف .

وفي الوقت المحدد ، صعد البريطانيون الى ظهر السفينة ثانية ؛ وطلبوا اليّ بأدب جم ان انزل الى زورق بخاري . ومنه نقلت الى طرّاد بريطاني ، حيث حجزت ثلاثة ايام .

وكانت تنتظرني في قمرة القيطان ، كل صباح ، وعصر ، ومساء ، قنّينة شامبانيا ، هدية لي من الضباط البريطانيين ، ليبقى مزاجي رائقا !

وذات مساء ، كشف لي احد هؤلاء الضباط ما في قلبه . لقد كان قنصلا في كارلسباد ، سبع سنين . فهو يعرف جميع اللهجات الالمانية ؛ ويستطيع ان يحزر أن رجلا ما ، هو محايد او غير محايد . وقد ضاق ذرعا بأن يكون كبش الفداء ، كلما تعرض مسافر محايد للمضايقات . واضاف : ان هناك دبّا عجوزا ، يجلس في لندن ، لا يشبع من هذه التصرفات . فعلينا كلما وقعت ايدينا على رجل ، حتى لو كان حياده واضحا ، ان نؤدي مهمتنا معه على احسن وجه . فلقد ركبته فكرة مؤداها ان كل محايد مشبوه ! وسألت :

ـ ومن هو هذا الرجل ؟

ـ الاميرال هول .

وفي اليوم الثالث من اقامتي على ظهر الطرّاد ، امتحنت بمفاجأة غير متوقعة . فقد وُوجهت بصاحبي الأصمّ . لقد نقل الى الطرّاد كشخص مشبوه ايضا ، وكان

يستجوب من قبل ضابط يشير اليّ .

وصرخ صاحبي بفتة :

ـ انتظر دقيقة .

وطفق يخرج من حقيبته سماعته الضخمة ، بحركات بطيئة متعمّدة . ولم تعمل البطارية على الفور ؛ فراح صاحبي يعالجها ، ويدير شيئا فيها . ثم قال للضابط :

ـ عفوا ، لحظة واحدة .

ثم رفع السماعة الى اذنه ، وزأر :

ـ ماذا قلت ؟

وهنا ادرك الضابط ، ان المواجهة الحاسمة التي كانت موضع امله ، قد خابت وفقدت اثرها . فابتعد عن صاحبي دون ان يجيبه .

ولكن هذا صرخ يخاطبني :

ـ ماذا يقول هؤلاء ؟

ثم شرع يجري على سطح الطرّاد ، وهو يعبث بسماعته ، ويخاطب الضباط الواقفين فوق الجسر :

ـ ماذا تريدون مني ؟ وما هذا الذي تقولون ؟

لقد كان هذا التصرف ، بالقياس اليه ، سهلا . فهو يسافر بشكل مشروع ، ويحمل جوازا صحيحا ، فليس هناك ما يخشاه . اما انا ، فالامر بالنسبة لي ، اعظم واخطر .

وفي رامسكيت نقلنا الى الساحل . فاستجوبونا وفتشوا اوراقنا عدة مرات . وفي الفترة التي تخلّلت ذلك ، ذهبوا بنا الى احد الفنادق لتناول الشاي . وفي بهو هذا الفندق ، تلقيت صدمة جديدة ! رأيت خادما تذكرت انه كان يعمل في فندق برستل ببرلين ، حيث كنت اتردّد . وبينا كنا نشرب الشاي ، أخبرت صاحبي بذلك ، فقال متبرما :

ـ ها انت ذا تكتشف صديقا آخر التقينا به من قبل . قل لي ألا تستطيع ان تذهب الى مكان في العالم ، دون ان تلقى شخصا تعرفه ؟

ثم عدنا الى مقر التحقيق . فرأيت في زاوية من الغرفة ذلك الخادم . وكان علي ان التزم الهدوء والبرود . وراح الضابط يعيد علّى الاسئلة التي اجبت عليها في الصباح . وبينا كنت اعيد اجوبتي ايضا ، انفجر من زاوية الغرفة صوت حاد ، مفعم بالكره والغضب :

ـ لا تنطق بمثل هذا الهراء . ما نت الا الكابتن رنتلن من برلين .

لم احرك ساكنا . وتجاهلت هذه المقاطعة ، ومضيت اجيب على اسئلة الضابط بكل هدوء .

فصرخ الخادم ثانية :

ـ دع عنك هذا الهراء . انك الكابتن رنتلن الالماني . لقد عرفتك لمدة طويلة .

وادركت اني اذا واصلت تجاهلي له ، اثار ذلك بعض الشك . فاستدرت نحوه ، وقلت بدهشة :

ـ ما هذا الذي تقول ؟

فما كان من صاحبي الاصم الاّ ان ثبت سماعته الى اذنه ، وانضّم اليّ صائحا :

ـ ماذا يقول هذا الرجل ؟ وماذا يريد مني ؟ ام هل هو يتكلم معك ؟

فصرخت ، بدوري ، في سماعته :

ـ انه يقول اني . .

ثم استدرت نحو الخادم ، وسألت :

ـ ماذا كان الاسم الذي ذكرت ؟ وهلاّ تهجيته من فضلك ؟

فأعقب ذلك فوضى في التلفظ ؛ وخلط بين حرف الـ **A** بالانكليزية والـ **E** بالالمانية ؛ وتشوّش الاسم الذي صرخت به في سماعة الامريكيّ ، حتى صار مما لا وجود له . وراح صياحنا يدخل بعضه في بعض ، حتى ضاق صاحبي بهذا كله ، فحشر سماعته في علبتها ، وقال مُغْضبا :

ـ في هذا الكفاية !

فاردفت قائلا :

ـ في هذا العالم ، يوجد دائما اناس لا خلاق لهم ، ويصّرون على مضايقة الآخرين ، من ذوي النوايا الحسنة .

وما كان من الضابط الاّ أن أوعز الى الخادم بأن يخرج من الغرفة ، باشارة تنم عن نفاد الصبر . ثم توجه الى الهاتف ، وراح يوضح ان خطأ ما ربما قد وقع . وكانت دهشتي عظيمة ، وفرحي لا يوصف ، حين سمح لنا بالعودة الى الباخرة . وكان متاعنا قد سبقنا اليها ، فلاحت في مخيلتنا ارض الاباء .

ولكن ما كاد زورقنا يقترب من الباخرة ، حتى صاح ضابط بـريطاني من عـلى سطحها ، في مكبّرة الصوت :

ـ ارجعوا !

فرجعنا الى الساحل ثانية . وهناك فُصلت عن صاحبى ، ونُقلت بـالقطار الى

لندن ، تحت حراسة شرطي سرّي ، وضابط بحري . ومما اثار دهشتي ، اني نُقلت على اثر ذلك الى سكوتلنديارد .

وكان في الغرفة التي دخلنا اليها ، الاميرال سر ريجنالد هول ، رئيس الاستخبارات البحرية البريطانية ، ومساعده الايمن لورد هرشل ، وعلى يسار الموقد ، كان يجلس عند منضدة ضخمة سر بازل تومسن ، رئيس دائرة التحقيقات الجنائية .

وقد اثار هذا الاجتماع الخطير على شرفي ، توقعات مثيرة في نفسي . وكانوا جميعا جلوسا ، يحدقون في بعيون تنمّ عن الحقد .

ونهض الاميرال هول ، فسأل :

ـ هل انت الكابتن رنتلن ؟

ـ لست مضطر الى اجابتك .

فتدخل سر تومسن قائلا :

ـ الظاهر انك لا تعرف اين انت .

ـ لاكن حيثما اكن . لقد جُلبت بالقوة ، وليس لي شأن في هذا المكان . ثم اني لن اجيب على اية اسئلة ، حتى اتصل بسفير بلادي . ام هل انا متهم بجريمة ؟

قال سر تومسن :

ـ انت الماني . فعليك ان تشرح سبب وجودك فوق التربة الانكليزية .

ـ اني لم اهبط التربة الانكليزية ، بارادتي الحرة ، بل جُلبت الى هنا بالقوة ، خلافا لجميع مقتضيات العدل .

فأحدث جوابي ضجة . وتهيّج كل من هول وتومسن ، بينما واصلت ، انا ، التظاهر بالغضب والاحتجاج . وجعلت اصرّ على نقلي الى الوزير السويسري ، حتى بدالي ، انهم صاروا يشكون في سلامة موقفهم .

وانفضّ الاجتماع . فأخذوني ، على الفور ، الى المفوضية السويسرية . كان الوزير السويسري السيد كاستون كارلان ؛ وهو رجل مسن ، طويل ، اشيب ، عليه سيماء الوقار فخاطبني بالالمانية قائلا :

ـ والان ، اخبرني علام هذا كله ؟ اني لم استطع ان افعل شيئا حين وصلت برقيتك ، اذ كنت في عطلة نهاية الاسبوع . ماذا يريد الانكليز منك ؟ لقد علمت ان اوراقك منتظمة ؛ ومع ذلك ، يصر هؤلاء بكل عناد ، على انك الكابتن رنتلن الالماني . فهل تستطيع ان تشرح لي ، كيف دخلت هذه الفكرة في رؤوسهم ؟ وقررت ان اجازف باللجوء الى الخدعة . فقلت :

ـ سأكشف لك الامر ، يا صاحب السعادة . لقد كان الكابتن رنتلن على ظهر الباخرة فعلا . ولكن البريطانيين وضعوا ايديهم عليّ ، بدلا منه . وكما قرأت في صحيفة التايمز ، ان السفينة نور دام قد وصلت الى روتر دام . فالضابط الالماني الحقيقي هو ، الان ، في مكان بعيد وامين . فأنت ترى ان مشاعري مع الالمان . لقد قضيت حياتي بينهم . وانت تتذكر ان والدي كان القنصل السويسري في لايبزك .

ـ اوه ، نعم . اني اتذكر والدك . لقد كان تصرفك سليما .

ثم تقدم من وراء مكتبه ، فمد الي يده ، وهو يقول :

ـ تقبل شكري على سلوكك المحايد .

واتصل ، امامي ، هاتفيا بوزارة البحرية ، فأخبرها بالالتباس الذي وقعت فيه .

وعاد بي الحراس الى الاميرال هول . فكان الآخرون جميعا يرغون ويزبدون ، لاني تركت رنتلن يفلت من بين ايديهم . وتقدم الاميرال هول نحوي ، فقال :

ـ اذن ، انت لست رنتلن ؟

ـ لقد اعطيت جميع الايضاحات الى سفيري .

ومع ذلك لم يسمحوا لي بأن استأنف سفري ، الاّ في مساء اليوم التالي . واخذني حارسان الى فندق سيسيل ، وهناك طلبت شرابا ، ابتهاجا بربحي للمعركة . فلم يبق ، امامي ، سوى بعض الاجراءات الشكلية ، ثم اكون في برلين .

وجلس الحارسان في الغرفة المجاورة ؛ وتركا الباب الموصل الى غرفتي مفتوحا لمراقبتي . ورحت اتمشى في الغرفة ، فطرق سمعي ما جعلني اجمد في مكاني . كان احدهما يقول :

ـ ان المفوضية البريطانية في برن ، تجري تحقيقا خاصا في الموضوع . فقد طلب اليها الاميرال هول ان تتحقق من امكان وجود المدعو اميل كاشيه بلندن ، في هذا الوقت .

هنالك علمت اني لم اربح المعركة ، بل وقعت في فخ خطير . فالمفوضية البريطانية سوف تكتشف ان السيد كاشيه الحقيقي مقيم في سويسرا ؛ واذا علم الانكليز بهذه الحقيقة ، سقطت في الهاوية .

ورحت استعرض تسلسل الحوادث . ان الانكليز لم يستجوبوا من ركاب السفينة سواي وصاحبي الامريكي . وهذا معناه انهم على علم بما كنت افعله في امريكا . فاذا جاء الجواب من برن ، فسوف اعتبر شخصا مدنيا ، وسوف ارسل مخفورا الى

الولايات المتحدة ، لالقى هناك الترحيب الذي استحق . وبما اني لن اترك حرا في جميع الاحوال ، فمن الخير لي ان اكون اسير حرب ، بدلاً من نزيل في السجون الامريكية .

ونقرت على الباب ، فقلت لاحد حارسيّ :

- عفوا ، هل يمكن الان ان اقول كلمة للاميرال هول ؟
- لا اظن ذلك . ولكن ماذا تريد ؟ وهل الامر ملحّ الى هذا الحد ؟
- نعم . انه كذلك . ان الاميرال سيكون شديد الاهتمام بما اريد ان اقول .
- حسنا ، اخبرني به اذن ؟
- كلا يجب ان اكلم الاميرال نفسه .

وتوجه الى الهاتف . كانت الساعة الثامنة مساء ، ولكن الاميرال كان مايزال في مكتبه ؛ وقد ابدى استعداده لمقابلتي على الفور .

كان المطر ينهمر ، حين عبرنا ساحة وزارة البحرية . وكان الاميرال واقفا في غرفته . فبادرني سائلا :

- ما هذا الذي جاء بك الى هنا ، في مثل هذا الوقت ؟

فاعتدلت ، ووقفت وقفة الاستعداد ، ثم قلت :

- اني اسلم نفسي !
- ماذا تعني ؟ لقد ابرقنا الى برن بخصوصك .
- ولهذا جئت . اذ لم يعد ذلك ضروريا .
- ولكن ماذا يعني هذا كله ؟!
- سيدي . ان الكابتن رنتلن يمثل ، الان، بين يديك كأسير حرب !

الرسالة السرية

في تشرين الاول ١٩١٤ ، اجتاح الالمان مدينة ليل الفرنسية ، فدب الذعر في نفوس الناس ، وفر من وجد الى الفرار سبيلا . وكان من بين الفارين الى انكلترا ، فتاة كريمة المحتد ، يقال لها لويز دي بتيني . ولما وصلت الى فوكستون ، استقبلها الضباط البريطانيون ، فدهشوا لما تتمع به من حيوية وسحر . وراح احد ضباط الاستخبارات يخوض معها في حديث متشعب طويل ، فاكتشف الى جانب حيويتها وسحرها ، ذكاءها المفرط ، واتقانها للانكليزية والالمانية بالاضافة الى لغتها الفرنسية ، وكذلك اندفاعها في خدمة بلادها ، ومقاومة الاحتلال ، بأية صورة . وعلى ذلك لم يجد صعوبة في اقناعها بأن تعود الى فرنسا ، لتزود الحلفاء بمعلومات عن التحركات العسكرية الالمانية .

فعادت الى مدينتها ليل ، وجعلتها مقرا لنشاطها ، واتخذت اسما مستعارا هو أليس . ومن هذه المدينة ، وبكل براعة ودقة ، مدت شبكتها ، وبثت فروعها ، في انحاء فرنسا الشمالية بأسرها . وصار الحلفاء يتلقون بواسطتها معلومات ثمينة ، في رسائل تصل اليهم من الاراضي الالمانية والهولندية .

وقد وضع الاستاذ انطوان رديبه ، كتابا رائعا عن قصة حياتها ، نقتطف منه فيما يلي الفصل المتعلق بخاتمتها الفريدة المحزنة :

كان السيد لاموت يواجه صعوبة جمة ، في الحصول على جواز سفر لأليس ، وعلى مسافر يقبل ان يصحبها الى تورنيه ، لقد طلبت اليه أليس ان يجد مثل هذا المسافر ؛ ولعلها ظنت انها ستكون اكثر ارتياحا ، واشد اطمئنانا ، اذا عبرت نقطة الحراسة الالمانية ، بصحبة شخص لا يعرف عنها شيئا .

وظل لاموت يبحث بعناء ، حتى علم ان آنسة تدعى سينايف ، من مدينة هيرزو ، قد حصلت على اذن للذهاب . الى تورنيه ؛ فرجا اليها ان تعيره ذلك الاذن صباح الاربعاء لتعبر به ابنته الى هناك ، على ان يعيده اليها عند منتصف النهار ؛

فوافقت الفتاة على ذلك . ثم تذكر لاموت ان الانسة مرغريت لوفرانسوا ، تتلهف للسفر الى تلك المدينة ، للقيام ببعض التسوق ، ولكنها تفتقد الاذن . وكان يعرفها ؛ فعزم على ان يجعلها المسافر الثالث الذي طلبته اليس ، مهما كلف الثمن . فعرض عليها ان تصحبهما ؛ وقال لها بتهور انها تستطيع ان تستخدم اذن الانسة سينابيف .

وفي صباح الاربعاء ، توجه لاموت الى مدينة هيرزو ليأخذ الانسة لو فرانسوا ، وهو يهدئ من قلقه بأن أليس سوف تدبر امر الاذن على نحو ما ؛ وكان قد اخبرها بأن هذه الفتاة هي التي سترافقهما ، دون ان تعلم شيئا عن الغرض من الرحلة .

واتخذت لوفرانسوا مكانها في العربة بكل براءة . فهي لا تدري ان لاموت كان يضطلع بمهمة هي غاية في الخطورة ؛ وان حقيبة أليس مخفية تحت مقعدها ؛ وان هذه الفتاة تحمل اسما مستعارا ، وسوف تنضم اليهما في عرض الطريق ؛ والادهى من ذلك كله ، انها لم تكن تعلم ان أليس تخفي لديها رسالة سرية ، موجهة الى جيوش الحلفاء .

غادرت العربة مدينة هيرزو في السابعة صباحا ، وحين بلغت منعطفا قريبا ، رأيا فتاة تسير في الاتجاه الذي تسير فيه العربة . فلما ادركاها ، اشارت اليهما بالوقوف . فوقف لاموت ، وهو يتظاهر بالتأفف .

وسألت الفتاة :

ـ هل انتما ذاهبان الى مكان بعيد ؟

ـ الى تورنيه

ـ اني ذاهبة الى هناك ، فهل تأخذاني معكما ؟

فتنحيا فجلست الى يسارهما . ثم فتحت الحديث قائلة انها خياطة ذاهبة الى تلك المدينة لتجد عملا ، ولتبحث موضوع الازياء مع احد الثقات في هذا الفن . وكان لاموت خليقا بأن يضحك لهذا الكلام ، ولكن مزاجه لم يكن يسمح له بالضحك . ثم قالت الفتاة بغتة .

ـ آه ! لقد نسيت بطاقتي الشخصية ، فماذا اصنع ؟

وكانت تتوقع ان يقول لاموت ان لديه بطاقة اضافية ، كما هو متفق عليه ، ولكن هذا ظل صامتا كالقبر !

ولم تكن البطاقات الشخصية ، في تلك الفترة من الحرب ، تحمل صور اصحابها . لذلك ، كان بالامكان ، مع قليل من المجازفة ، ان تستعمل البطاقة الواحدة ، من قبل اشخاص مختلفين .

قالت الآنسة لوفرانسوا في لطف :
- خذي بطاقتي . وسأرجع انا .
ولكن أليس بادرت الى القول :
- كلا يا آنسة . اني لا اريد ان احرمك من هذه السفرة . سنعبر بالبطاقة معا ، وسوف اتدبر هذا الامر .

بدأ المطر يهمي ؛ فتوقفوا قليلا لرفع غطاء العربة . ثم واصلوا السير حتى صاروا في طريق يمتد الى امام ، ولا تتصل به فروع جانبية ؛ فلم يكن بوسعهم ، الان ، الا ان يمضوا قدما نحو النقطة الخطرة .

وهنا اخرج لاموت من قبعته الرسالة السرية ، فناولها الى أليس ، فدستها هذه تحت خاتمها . كانوا ، آنئذ ، عند مجموعة البيوت التي يقع في وسطها الحاجز الالماني . واستحال الطريق العريض المحفوف بالاشجار ، الى ممر ضيق ، قصير ، يؤدي الى الحاجز مباشرة . ولقد اخذ القلق يستبد بركاب العربة ، منذ وصولهم الى اول البيوت . واضحى ما وراء الحاجز حلما من الاحلام ، فهل سيعبرون ؟!

ونقطة الحراسة المؤدية الى تورنيه ، هامة من الناحية العسكرية ، ووطأة التفتيش فيها شديدة ، يقوم به حراس اشداء ، غلاظ . فمن شاء ان يعبر بسلام ، عليه ان يتجنب الاساليب الملتوية .

وقفت المركبة ، فقفز الثلاثة الى الارض . وبينما كان لاموت يفك الفرس من العربة ، اندست أليس بين زمر الجنود ، والمدنيين ، والصبية . ثم قصدت واحدا من هؤلاء الاخيرين ، فهمست في اذنه شيئا . ثم وضعت ذراعها في ذراع رفيقتها ، فتوجهتا بخطى ثابتة نحو الحاجز . ولما صارت على بعد عشرين ياردا منه ، توقفت أليس ، وواصلت لوفرانسوا السير وحدها ، وهي تحمل الجواز بيدها . اما أليس ، فقد جنحت الى فسحة منعزلة ، مظللة بالاشجار ، وراحت ترقب ما يحدث .

وعاد اليها الصبي الذي كلمته بسرعة البرق . وراح يتلفت حوله ، ثم دس في يدها بطاقة الانسة لوفرانسوا ، فدسنت في يده بعض النقود . لقد اصبحت رفيقتها ، الان ، على الجانب الاخر من الحاجز ، تنتظر عبورها ، هي ايضا ، بالطلسم نفسه !

وعبرت اليس ؛ فراحت الفتاتان تتضاحكان ، وتمرحان ، كطيرين هربا من القفص . وبينا هما في غمرة الفرح ، عجب رجلان قادمان من تورنيه من هذا المرح المفاجئ ، الغريب . فتقدما نحو الفتاتين ، وقال احدهما لاليس :
- ارني اوراقك .

- لقد رأوها هناك .
- ابرزيها ثانية .

ففقدت اليس صوابها ، وسألت باضطراب :

- ولكن ، من انت ؟

فأخرج مدالية ، وقال بصوت خش :

- السلطة الالمانية .

فقدمت اليس اليه الجواز . فاستدار الى رفيقتها ، وسأل :

- وجوازك ؟

فراحت لوفرانسوا تتظاهر بالبحث عنه في حقيبتها ، وهي ترتعش كالورقة . وكان البحث ، بالطبع ، بدون جدوى . فقال الرجل :

- هذا يكفي . هيا الى نقطة الحراسة . كلاكما .

واقتيدت الفتاتان الى الغرفة الرئيسة هناك . وكان لاموت قد جلب من نزل باليه رويال ، القريب من الحاجز ، دون ان يعلم بالتحول السيئ لمجرى الحوادث . وكان بعض الحرس يرتدون ملابسهم بينا راح احدهم يغتسل بالقرب من لوفرانسوا ، وهو عار الى الخصر ، وعلى حين غرة ، اعتدل هذا ، فصاح بصوت اجش ، وهو يشير باصبعه الى أليس :

- انظروا اليها ! انها مجرمة !

كانت الفتاة تبتلع الرسالة السرية !

ووصل ، الان ، احد رجال الشرطة تتبعه السيدة لاكرينوي . وهذه امرأة فظة ، شرسة ، تستدعى غالبا الى تورنيه ، لتفتيش النساء . فانقضت على الانسة لوفرانسوا انقضاض الجوارح ، وامرتها بان تخلع ثيابها . فقالت المسكينة وهي تنظر الى الجنود من حولها :

- هنا . . في هذا المكان ؟

فلم تلق التفاتا . وما كادت تفرغ من خلع ملابسها الخارجية ، حتى اغمي عليها ، وظلت غائبة عن الوعي حوالي العشر دقائق . وفي اثناء ذلك ، اتمت لاكرينوي نزع بقية ثيابها ، ففتشتها تفتيشا دقيقا . ثم انتقلت الى الغرفة المجاورة ، حيث كانت أليس ، و لكنها واجهت من هذه مقاومة لم تكن تتوقعها . فلم تدخر اليس كلاما مقذعا في مهاجمة هذه المرأة ، والدفاع عن نفسها . كما ان لاكرينوي لم تدع بوصة من ثياب الفتاة دون تفتيش ؛ وراحت تنتشل منها الاوراق المخفية ، الواحدة تلو الاخرى .

وفي الوقت نفسه ، كان المحققون يستجوبون لاموت .

ثم اخذ الثلاثة الى مقر القيادة الالمانية المحلية . فراحوا يستجوبونهم للمرة الثانية . وفجأة ، التقت عينا اليس بعيني لاموت . كان هذا يجلس في غرفة صغيرة ، قد ترك بابها مفتوحا ، وكانت السيدة لاكرينوي بالقرب منه ، وقد فرغت من تسخين بعض الحليب ، بعد ان وضعت فيه مسحوقا مائلا للصفرة . واستطاع لاموت ، عن طريق الاشارات ، ان يفهم اليس ان عليها ألا تشرب ذلك الحليب .

واقتربت لاكرينوي من اليس ، وهي تقول :

ـ لابد انك متعبة . اشربي هذا .

ـ كلا ، شكرا يا سيدتي .

واصرت لاكرينوي ، فأصرت اليس على الرفض . فإنبرى احد الرجال قائلا :

ـ هيا ، بلا سخافة . اشربي هذا ، او قولي لماذا ترفضين .

وكان الرجل ينتظر ان تفتح فمها لتجيب ، فلم تفعل . بل قامت بحركة عفوية ، سريعة ، اسقطت الوعاء ، فسال ما فيه فوق الارض .

وهكذا ظلت الرسالة السرية ، في باطن هذه الفتاة الصغيرة وعلى ذلك ، لم يضع الالمان مزيدا من الوقت في الاستجواب ، فارسلوها الى السجن مباشرة . واطلقوا سراح كل من لاموت ولوفرانسوا .

ومثلت اليس امام محكمة عسكرية المانية . فحكم عليها بالموت . بيد ان الحكم بدل ، فيما بعد ، الى السجن مدى الحياة . ولكن القدر لم يمهلها طويلا ، فقد توفيت بمدينة كولون ، في السابع والعشرين من ايلول سنة ١٩١٨ .

وحين وصل الحلفاء الى هذه المدينة ، كان قبرها مايزال حديثا . فراحوا يقفون امامه بكل تجلّة ، ليردوا بعض ما في عنقهم من دين ، لهذه الفتاة الوفية ، الجريئة .

الحسناء تتحدى

كان اسمها الحقيقي مارت ريشيه؛ ولكن الفرنسيين يلقبونها بالقبرة. ولست ادري ماذا يجمع بين هذا الطائر الوديع، وبين هذه الفتاة العنيفة، الصارمة؛ الا ان تكون هي مثله في النشاط، والرشاقة، وسرعة الحركة. كانت قبل الحرب العالمية الاولى تمتهن الطيران؛ وكانت ذات طبيعة مغامرة ـ تعشق الخطر، وتستمرىء المصاعب، وتجري وراء المجهول. وكانت الى ذلك كله، تحب وطنها فرنسا، الى درجة تضحي فيها بكل شيء من اجله.

وعرف فيها الكابتن جورج لادو، رئيس المكتب الخامس، هذه الصفات، فأدرك انها امرأة مثالية للخدمة السرية. وفي سنة ١٩١٥، فاتحها حول ذلك، فوافقت على الفور، وصارت اول فتاة في تاريخ فرنسا تدخل في هذه الخدمة. وكان المكتب الخامس في اول الحرب مُعْسرا، فلم تأبه الفتاة لذلك، وراحت تمارس عملها مجانا. بل هي ذهبت الى ابعد من ذلك، فصارت تصب في الخزانة الفارغة، الاموال التي كانت تكسبها من الالمان، على زعم انها تعمل لحسابهم.

وقد كلنها الالمان بمهمات مختلفة؛ ولكنها كانت تراوغ، وتتحايل، متجنبة كل ما يسيء الى وطنها بصورة خاصة، وكل مايضر بالحلفاء بصورة عامة. ومن ذلك، ان الالمان امروها بنقل حشرات موبوءة، الى عميل لهم في بوينس آيرس، لاتلاف مخازن الحبوب العائدة للحلفاء في امريكا الجنوبية، فما كان منها الا ان غمست تلك الحشرات في الماء، ثم سلمتها ميتة، لاتضر ولاتنفع.

وكان اكبر فريسة لها، البارون يوهان فون كروهن، الملحق البحري الالماني في اسبانيا. وعلى الرغم من ان هذا كان رجلا مسنا، فانها استطاعت بسحرها وشبابها، ان توقعه في شرك غرامها، حتى جُنّ بها جنونا، ووقع تحت سيطرتها. وراحت اكثر من سنتين تخادعه، وتستغله؛ حتى اذا شبعت من هذا كله، واصابها السأم، قررت ان توجه اليه الضربة الحاسمة. وهاهي ذا تقص علينا كيف صفت حسابها معه:

حين استدار البارون نحوي، علم بالغريزة انه يواجه الزوبعة. وفي اللحظة التي التقت فيها عيناه بعيني، انخفض وجهه، وقال وهو يجلس:
- ما الخطب يا مارت؟

فلم اتعجل في اجابته، بل بدا على اني في غمرة التفكير، واني اوشك ان انفجر. ومع ذلك، فأن الهياج في داخلي كان منتظما!

ونفد صبر البارون، فدوى صوته قائلا:
- مارت . . . ارجو ان تخبريني لماذا انت مشغولة الذهن بهذا الشكل المريع؟ هل انت مريضة؟ ام ماذا؟

فأرعدت، بدوري، قائلة:
- لقد سئمت من وجودي في اسبانيا، وضقت ذرعا بأن اعيش في منفى. اني اريد العودة الى فرنسا. فحدق في دهشة. ثم قال:
- انت متعبة يامارت، وتحتاجين الى تغيير. فاصبري قليلا، اني مرسلك الى مراكش في خلال اسبوعين. فزادني ثورة انه يصف لي الصبر، كعلاج لمتاعبي. وضربت المنضدة بقوة، اهتزت لها الاكواب. وقلت باصرار:
- اني اريد العودة الى فرنسا.
- انك لاتستطيعين ان تفعلي ذلك يامارت. انه يعني الموت لك. وانت تدركين هذا حق الادراك. فسألته بمرارة:
- ومن هو المسؤول عن ذلك؟
- انتظري حتى نهاية الحرب يامارت. وفي اللحظة التي تنتهي فيها، سوف اتخذ مايلزم لعودتك الى فرنسا.

وبوجه متصلب، ونظرات ملتهبة، صرخت في وجهه، وانا اخضع لدافع لايقاوم:
- اني فرنسية. . . فرنسية. . . هل تسمع هذا؟ وهل تعرف ماذا يعني؟ انه يعني اني منذ اليوم الذي عملت فيه معك، كنت اعمل من اجل وطني. لقد كنت اتعقبك وارقبك، فابعث بحركاتك وسكناتك الى باريس. فهل تدرك، الآن، مامعنى ان اكون امرأة فرنسية؟ فراحت الالوان تتعاقب على وجهه، ثم ارتسمت على شفتيه النحيفتين بسمة شيطانية. لقد كان عسيرا عليه ان يصدق اني اقول الحقيقة؛ فان اعتداده بنفسه، وثقته بأنه خبير بالطبيعة البشرية، كانا يحملانه على الا يصدق ان شابة فرنسية قد خدعته. وعلى ذلك، راح يغوي نفسه لتعتقد ان هياجي مرده سوء المزاج. قرأت هذا في وجهه، فزادني ثورة، وجنونا. فقررت ان اوجه اليه الضربة

التي تنجيه من عذاب الحيرة! فصرخت باللغة الالمانية:
- اني فرنسية!

ففغر فاه من الدهشة، وشاع في وجهه ذعر خالص. فلقد كنت ازعم له، طوال الوقت، اني اجهل لغته كل الجهل. واستطردت اقول:
- اتظن اني اطلق دعابة سخيفة؟ انتظر لحظة. هنا شيء سوف يقنعك.

واخرجت من حقيبة يدي قسيمة العودة لبطاقة سفري من باريس الى هانديه. ثم قلت له، وانا امسك بها تحت انفه:
- انظر اليها... إلق نظرة على تاريخها... أيها الاحمق اني لم انتظر انتهاء الحرب للعودة الى فرنسا. هاانت ذا ترى بأم عينيك، اني كنت في باريس منذ وقت قريب!
فقال، وهو مايزال غير مصدق:
- هذا غير ممكن... غير ممكن اطلاقا... مارت قولي انه غير صحيح. اني اعرف ماحدث. لقد اعطاك احد ما هذه البطاقة.
- كلا، لقد اشتريتها. انها بطاقتي. وقد خدعتك.

فصار وجهه قرمزيا. ورفع يده يتلمس بلعومه، حتى حسبت انه يوشك ان يغمى عليه.

قال، وهو يلهث من الغضب:
- انت فعلت هذا يامارت؟!
- نعم... نعم... واسأل القنصل اليوناني، يخبرك بالتفاصيل. فلتدرك ايها البارون فون كروهن، ممثل الامبراطور وليم الثاني، اني قد جئت لاسبانيا لاخدم وطني!

فاستولى عليه الذهول، وغاض سخطه في يأس مرير، صامت ثم قال
- لااصدقك... اني لااصدقك... حتى امرأة لاتستطيع ان ترتكب مثل هذه الخيانة، ومثل هذا التزوير.

وظهرت على عينه السليمة امارة القلق والعذاب، بينما كانت عينه الاخرى الصناعية، تتفرس فيّ جامدة، كعين الاشباح. وبرزت قطرات العرق فوق جبينه.

قلت مواصلة مواجهته بالوقائع الفاجعة:
- لقد اخبرتك ان زوجي قتل في سويسرا، فصدقتني. اقرأ هذه، فهل تصدقني الآن؟

وابرزت له وثيقة رسمية، تثبت اني ارملة حرب. فجعل ينظر اليها طويلا، كمن وقع تحت تأثير تنويم مغناطيسي. ثم ثاب الى نفسه، فأدرك الى اي حد وقع في الخديعة، فاستشاط غيظا، واستولت عليه نزوة طاغية، فلطمني على فمي لطمة

كسرت احدى اسناني.

وبقيت صامتة لحظة، من وطأة الضربة. ولكني ماكدت اتمالك نفسي، حتى عدت الى لهجة التحدي، فقلت:

- لقد وقعت على نفسك أمر موتك! غدا سأخبر الامير راتيبوف بكل شيء. وعندئذ سيحكم بنفسه كيف استطاعت شابة فرنسية، بكل سهولة، ان تلوي انف الملحق البحري الالماني!

ولاول مرة، شاعت في وجهه سخرية شيطانية. ثم قال:

- لن تتاح لك الفرصة للقيام بذلك.

وقفز من مقعده، فاندفع الى خارج المطعم، كقطة صب عليها ماء مغلي. ورحت اتساءل ماذا ستكون خطوته التالية؟ وفي الواقع، لم يكن يهمني كثيرا ماذا كان يعتزم ان يفعل. لقد سيطرت عليه، وجعلته يهرب من امامي؛ وكنت واثقة بأني سوف انجح في تحطيمه.

عدت الى الفندق، فأخبرني البواب ان رجلا قد جاء ليراني. وراح يصفه لي، فتبينت انه رجل لاعرفه، وجعلت افكر من عسى ان يكون، وانا في طريقي الى الغرفة. وحين بلغت باب الغرفة، سمعت جرس الهاتف يدق داخلها، فتوقعت ان الزائر الغامض قد عاد.

دخلت الغرفة، وقبل ان ارفع السماعة، دفع الباب بعنف، فمرق الى الداخل رجل اسباني، دون اية مجاملة. وقال باقتضاب:

- انا شرطي!

- شرطي؟ ولماذا من فضلك؟!

- عليك ان تأتي معي ياسيدتي.

- لأي شيء؟

- لقد حاولت ان تبتزي الملحق البحري الالماني بالتهديد.

فلم اجبه. بل رفعت السماعة بكل برود، وطلبت السفارة الالمانية. فلما اجابت السفارة، جعلت الح في تحديد موعد لي لمقابلة السفير، الامير راتيبوف في اسرع وقت. وبعد الاخذ والرد، اخبرت بالحضور في اليوم التالي. هنالك راح الرجل يتراجع متعثرا الى الخارج، ويعتذر بالغ الاعتذار، وقد بدت عليه امارات الحيرة والارتباك.

وفي الموعد المضروب، اقتدت الى غرفة الامير، فوجدته يتهيأ للخروج. كان رجلا قصيرا، نحيفا، انيقا للغاية، في حوالي الستين. ولكن الواضح، انه كان يبذل

كل جهد ليبدو اصغر من ذلك .

قلت بدون مقدمات :

ـ لعلك مندهش من زيارتي ، ياصاحب السعادة؟

ـ نعم ياسيدتي . واذا كانت معلوماتي صحيحة ، فأنت احد وكلاء البارون فون كروهن .

ـ لقد كنت كذلك بالاسم فقط ، ياصاحب السعادة . وقد جئت ، الآن ، لاعلمك بأني كنت اخدع البارون مذ دخلت في خدمته . وقد استفدت من هيامه بي ، فجعلته يغرف من الاموال المخصصة للخدمة السرية ، ليغدقها عليّ .

فراح الامير يحملق في ، وهو اخرس من الدهشة ! مرت على ذلك دقائق ، بدأ فيها على وجهه الارتياع من هذا الكلام ، تقوله فرنسية ، حول ملحقه البحري .

قال بلهجة المتحير :

ـ ولكن . . . ولكن . . . اني لاأفهم تماما . أليس من الحق أن البارون قد رتب لك ، ذات مرة ، سفرة عن طريق الممر السري الى فرنسا ؟

ـ بلى . لقد استفدت من حب هذا الأبله العجوز لي ، فزعمت له أني مريضة ، وأريد أن أستشير طبيبة فرنسية .

فبدا الأمير كالمشدوه ، ثم استطرد قائلا :

ـ أليس من الصحيح أن البارون قد أرسلك في مهمة الى الأرجنتين ؟

ـ بلى ، ياصاحب السعادة . وقد استمتعت بتلك الرحلة ، إذ كنت متشوقة لرؤية ذلك القطر . ولهذا السبب وحده ، ذهبت الى هناك !

فاظلم وجه الأمير ، وبدت عليه أمارات القلق البالغ .

ثم قال :

ـ أجيبي بصراحة على سؤال واحد ياسيدتي : حين كنت في خدمة الملحق البحري ، هل حصلت على أية معلومات هامة تتعلق بنا ؟

ـ كلا ، ياصاحب السعادة . لقد كان همي الوحيد ، أن أستمتع بوقتي على حسابه . بيد أن مفتاح خزانته الحديدية ، كان في حيازتي أكثر من مرة . وبهذه المناسبة ، ها هي النسخة الثانية من المفتاح ، خذها مع رسائل الحب هذه ، التي كتبها لي هذا الأحمق . واحفظ بكل ذلك لديك !

وهنا ارسل الي الامير نظرة ، جعلت من الواضح لدي ، اني اذا لم اخرج على جناح السرعة ، فسوف يلقي بي الى الشارع . ولكن هذا غير مهم ، لان البيانات التي افضيت بها اليه ، كانت كفيلة بأن تقضي على مهنة البارون قضاء مبرما .

وانحنيت له انحناءة متشنجة، فرد عليها باسوأ منها. وبينما كنت اغادر السفارة، رأيت البارون مقبلا نحوها. فرشقني بنظرة ثاقبة، تنم عن بالغ الحقد. ثم دخل ليلقى نهايته.

اما انا، فقد اندفعت في الشارع، لاالوى على شيء، وانا ارتعد من الخوف.

الكتاب الرهيب

نحن، الآن، في ابان الحرب العالمية الاولى، وفي بلجيكا بعد ان احتلها الالمان بأيام قليلة. والى جانب هذا الحدث الهام، كان يقع حدث آخر تحت جنح الخفاء ـ حدث صغير وخطير في وقت واحد. فلقد تطوع في الجيش الالماني، ضابط بروسي معتز بمكانته الارستقراطية، مؤمن بتفوقه الطبقي، وله املاك واسعة في بلجيكا. وقد اتفق انه كان فيها يوم جاءها الالمان، فاختطفه احد الوطنيين البلجيكيين، ولم يعد احد يراه، او يسمع عنه شيئا. ثم وقع الحدث الصغير الخطير. فبكل بساطة، وبكل جرأة، انتحل شخصية هذا الضابط البروسي، بريطاني في الخدمة السرية، يقال له الكابتن كلايف غرانفيل. لقد كان الشبه الجسماني بين الرجلين عجيبا، غريبا، يكاد لايصدق. حتى اقرب الناس اليهما، لم يكن ليستطيع ان يميز بينهما. ولكن هذا الشبه وحده، لم يكن ليشفع للكابتن كلايف في هذه المغامرة، لولا انه كان يتقن الالمانية كأحد ابنائها؛ ولولا انه قضى سنوات في المانيا، وقد درس في احدى جامعاتها.

ومع ذلك، فأن الاستمرار في مثل هذه المغامرة، لايمكن ان يتحقق الا بمعجزة. والمعجزات لاتقع في كل حين، ولاحسبما يشتهي الانسان. وهذا ماكان. فأن السلطات الالمانية جعلت تشك في هذا الضابط، وتحوم حوله، وتجمع المعلومات الدقيقة عنه. ومنذ هذا الوقت، بدأت متاعبه؛ وراحت تتوالى عليه سلسلة من الاخطار، حتى بلغت ذروتها على النحو الذي نحن قاصوه عليك:

لابد ان قلب كلايف قد فقد احدى دقاته، وهو ينظر الى الرجل الالماني، المنتصب امامه وسط الغرفة، ومسدسه بيده.

لم يحرك جسمه، بل جعل يتلمس مونوكله، فوضعه بسرعة على عينه، فألقى على غريمه نظرة ملتهبة. وادرك ان عليه ان يقوم بدوره خير قيام ـ ضابط مترف، يحيا حياة فارغة، ولا يخشى مثل هذا الهجوم المباغت. وقال بصوت يرقى الى الاحتجاج

الممزوج بالسخط :

ـ من انت؟ حتى تجيء الى هنا، فتهدد بروسيا محترما!

فأجاب الالماني بسخرية :

ـ ايه! بروسي محترم؟ بعد قليل سوف نعتصر الرجل المحترم من داخلك، ثم ننظر ماذا يتبقى من البروسي، ايها الكابتن غرانفيل!!

فصرخ كلايف في هياج :

ـ من انت ايها المجنون؟! فرتز.. فرتز. تعال اليّ في الحال.. اني اهاجم!

وسمع وقع اقدام الوصيف وهو يقترب. فلما صار لدى الباب، ارتسمت على وجهه امارات الذعر، فوقف فاغرا فاه. وخفض الالماني المسدس، ثم قال بخشونة :

ـ ابعد صاحبك!

فتردد كلايف لحظة، ثم اشار الى فرتزبالانصراف. وراح يرسل الى الرجل نظرات تائهة، ثم سعل سعلة مفتعلة، وسأل :

ـ والآن، هل تتفضل بشرح هذه اللعبة المسعورة؟

ـ لقد جئت لالقى القبض عليك، ايها الكابتن غرانفيل!

ـ تلقي القبض عليّ ؟؟ ومن انت بحق شياطين جهنم؟

فنظر الرجل الى ساعته، ثم قال :

ـ سيصل اثنان من رجالي خلال خمس دقائق. وفي اثناء ذلك سيكون لي معك حديث جدي.. حديث ان لم تقل فيه كل ماتعرف، فعندنا الوسائل لانتزاعه منك، ايها الانكليزي القذر!

فتجاهل كلايف هذه الاهانة المقصودة. وسأل بصوت متحير:

ـ هلا اخبرتني من فضلك، من تكون انت؟ ومن تفترض ان اكون انا؟

فجلس الرجل على حافة احد الكراسي، وهو يرقب كلايف عن كثب، ويرسل اليه نظرات مخاتلة. ثم قال موضحا:

ـ انت تعلم حق العلم اني الاميرال فون كرامن. ومن سوء طالعك، وطالع خططك الماهرة، اننا قد التقينا مرة في القطار، فأسديت اليك، آنئذ، بعض النصح. وهانحن نلتقي ثانية، ولكن في ظروف مختلفة. ومنذ ذلك اللقاء، اكتشفنا عنك الكثير من اليوم الذي تركت فيه لندن.. حتى اليوم الذي فقد فيه رجالي اثرك. كما اننا نعرف المهمة التي بعثك بها ذلك الثعلب الكولونيل تمبلمان!!

وغاص قلب كلايف، اذ سمع الرجل ينطق بالاسم الاخير. ولكنه تذكر ان شخصا مثل فون كرامن، لابد ان يعرف نظيره في الاستخبارات البريطانية.

واستطرد الاميرال يقول:
- ونحن نعرف، ايضا، اليوم الذي تم فيه انتحالك المشوق لشخصية الهر البرك فون شولتز!

ثم توقف عن الكلام. وكان شعور كلايف ان الاميرال لما يفصح عن الغرض الحقيقي من زيارته؛ وانه ينتظر فلتة من لسانه، لكي يستفيد منها في تبين سبيله. ولذلك، آثر ان يلزم الصمت.

قال الاميرال مواصلا كلامه:
- ان الانكار لايجديك شيئا. فلدي اعتراف كامل من ذلك العجوز المتفسخ، نوتاريس، شريكك في المؤامرة!

فأجاب غرانفيل، وهو يضحك بانفعال:
- ايها الاميرال، اذا استثنينا مايبدو واضحا، انك تحسبني، خطأ، شخصا آخر، فأن سائر كلامك بالقياس اليّ، ماهو الا الغاز.. احجيات صينية!

قال ذلك، وهو يشعر بشيء من الارتياح؛ لانه كان واثقا من ان صاحبه نوتاريس لايعترف بشيء، ولو سلط عليه العذاب الاكبر. فالاميرال انما يلجأ الى «البلف»، ولكن ذهابه في ذلك الى هذا المدى البعيد، قد فضحه. ومع هذا، لم يكن متفائلا؛ فأن الاميرال قد سار في الطريق الصحيح الى درجة خطيرة. وقد يفتقد الدليل الملموس في الوقت الحاضر، ولكن اية بادرة قد تقدم له هذا الدليل. وهو، الآن، يسعى وراء مثل هذه البادرة.

وطفق الاميرال يكشف عن الغرض من زيارته، فقال:
- بالامس، تناولت العشاء مع البارونة كالي فهيل، وهي، ايضا، تعرف شخصيتك الحقيقية.. ولكني لن اتكلم عن هذا. فالاهم منه، انك قد تسلمت، تحت بصرها، كتابا صغيرا، لايمكن ان تلمسه يد غير المانية، ثم يبقى صاحبها على قيد الحياة!! والآن، لديك دقيقة واحدة.. سلم الي هذا الكتاب، اقسم لك انك ستغادر هذه البلاد في امان.. ارفض، اطبق عليك القانون بنفسي، فأقتلك كما تقتل الكلاب!

كان المنزل المقابل رقم ٥ مأوى لبعض اعوان غرانفيل: فيرهاكن، وهنري. فتوجه غرانفيل الى النافذة، وبدأ يتلمس الستائر. ولعله فكر في ارسال اشارة الى صاحبيه لتسليم الكتاب الذي تطرق اليه الاميرال. ولكنه ماكاد يتطلع من النافذة، حتى رأى شبح هنري يبتعد عن المنزل، فلم يبق مجال لارسال اية اشارة. وانتابه القلق، وراح يتساءل في حيرة: ماالذي ازعج هنري عن المنزل، فأخرجه منه في مثل هذا الوقت؟!

ولاحظ الاميرال اضطراب كلايف، فتابع نظراته، فوقعت عيناه، هو ايضا، على هنري هاربا. فصاح وهو يتحفز للمطاردة.
ـ آه! هذا احد صقور فيرهاكن!

وانطلق في الشارع في اثر هنري. كان الظلام قد هبط، وبدأت عتمة المساء تشتد. وتحتم على كلايف ان يفعل شيئا قبل فوات الاوان، لتحذير اصحابه. فتوجه الى المنزل رقم ٥ فوجد رجلا على كل جانب، يتولى المراقبة. فسار الى مقهى مجاور، مقابل للمنزل، وراح يرقب مايجري، ويفكر فيما يمكنه ان يفعل. ودار في ذهنه انه لن ينقذ الموقف الا دهاء هنري، وحسن تصرفه. فهل يستطيع ان يهرب الكتاب؟! لقد اتلف فيرهاكن كل ورقة، واحتفظ بمحتواها في دماغه الموسوعي. فلم يبق في المنزل مايخشى منه، او يخشى عليه، سوى ذلك الكتاب الصغير.

وبعد وقت طويل، فتح الباب رقم ٥ بغتة، فانسل منه ثلاثة رجال. تفرس فيهم كلايف، فتبين فون كرامن وهو يأمر احد الرجال بالبقاء، بينما انصرف هو والآخر بسرعة حتى لفهما الظلام. فاستنتج كلايف ان الباب الامامي قد اقتحم، لذلك ترك الاميرال من يحرسه. ففكر في ان يقوم بدورة طويلة، ليدخل المنزل من الباب الخلفي. تلمس مصباحه الكهربائي، واعد تحت المنضدة مسدسه للاطلاق. ثم انطلق في دورته الطويلة نحو الباب الخلفي.

فتح الباب، فعبر الممر المسقوف، الطويل، على جانب الحديقة الفسيحة. ثم صار لدى باب المطبخ. عالجه، فانفتح بسهولة، فتسلل الى الداخل. ولكنه ماكاد يتقدم، حتى عثر بكرسي مقلوب، فوقف ينتظر برهة. فلم يسمع صوتا، ولم يأنس حركة. عبر الصالة، فأضاء المصباح، ففتح باب حجرة الاستقبال. فيا للمنظر المريع! كان كل شيء فيها قد تحول الى مزق وانقاض، حتى التصاوير والتحف الفنية وورق الجدران، لم تسلم من هذا العبث الفظيع. فتوجه الى مكتب فيرهاكن، فوجده اسوأ حالا. فلقد تكدست الوثائق والاوراق الاخرى فوق الارض. ووسط ذلك، وقعت عيناه على جسد هنري المتشنج، ومن بين اسنانه تخرج اللعنات مع انفاسه الاخيرة، الضعيفة.

وقف مشدوها ازاء هذا المنظر الفاجع. ونسي نفسه؛ فهو لايدري كم مضى عليه، وهو في هذا الذهول. ثم سمع صوت سيارة تقف لدى الباب الامامي؛ فاطفأ المصباح واخرج مسدسه؛ وفكر في ان يكدس جثث القادمين فوق جثة هنري! ولكنه طرد هذه الفكرة، اذ ليس لها من نتيجة، سوى ان ينتهي امره، هو ايضا.

وانسحب بهدوء من الباب الخلفي، وعاد الى منزله، فوجده قد اجتيح بنفس

الاسلوب. فتهاوى على احد المقاعد، واستسلم لكرب عظيم. لقد اصبح وحيدا، عاجزا، محاصرا، قد سقط بعض رجاله صرعى، وسوف يسقط آخرون. وهو. قد يأتي دوره في وقت قريب.

وبينما هو في ظلمة اليأس هذه، اذ سمع دقة ضعيفة على الباب، ثم دخل وصيفه فرتز. بقى صامتا، ساكنا، لحظات؛ ثم تطلع الى وصيفه، فسأل:

- ماذا هناك يافرتز؟!

فوضع الوصيف طردا، صغيرا، ابيض، فوق المنضدة، ثم قال:

- لقد كان هنا شرطيان، ياسيدي. وقد غادرا المكان منذ وقت قصير.

- اجل، اني ارى ذلك.

فاستطرد فرتز، وهو يحول عينيه من سيده الى الطرد:

- وقد عاد الى هنا، ذلك البحار، الاميرال، فسأل عنك الكثير؛ ثم فتش هذه الغرفة، وقال انه يبحث عن كتاب صغير، ولكنه لم يعثر عليه.

فهز كلايف رأسه، وهو شارد الذهن، بينما استمر فرتز يقول:

- بينما انا ذاهب هذا المساء، لتسلم حصتنا من التموين، رأيت تابعك الامين نوتاريس، فقلت له محذرا:

- مرحبا ايها البلجيكي. اياك ان تقترب من الهر كلايف، فهناك بحار مسعور يحوم حوله، وبيده مسدس.

- آه! كل مالدي هو هذا الطرد الصغير. فهل تستطيع ان تسلمه اليه؟

فقبلت بالطبع. فقال لي محذرا:

- ايها الجندي. ان هذا الطرد جد ثمين. ثمين مثل حياة الهر كلايف، فهل فهمت؟ ومايبنغي ان يتسلمه احد غيره.

ونظر فرتز الى ذلك الشيء الصغير فوق المنضدة، فقال:

- وهذا هو الطرد، ياسيدي.

فانتفض كلايف من ذهوله، فانقض على الطرد، فقطع الخيط، ففض الغلاف في لحظة، فظهر ذلك الكتاب الرهيب. وجعل يحدق فيه، وهو غير مصدق. وحين تمالك نفسه، راح يقلبه بين يديه، ويتصفح اوراقه؛ فاذا ورقة مكتوب عليها بخط هنري المسكين: «حذار!... ان الموت سوف يتعقب هذا الكتاب، مثلما يتعقبك ظلك. انه احدث شفرة لدى الاسطول الالماني الامبراطوري!!»

الحرباء

اكناتيس تيموثي تريبتش مغامر دولي يستطيع ان يحتكر لنفسه، بحق، انه اعظم مغامر عرفه التاريخ الحديث. فقد استطاع ان يساهم في عدد فريد من المغامرات، والاضطرابات الخطيرة، وان يخرج منها، جميعا، دون ان يمسه سوء كبير! لقد كان ممثلا بارعا في اداء جميع الادوار التي تتطلبها لعباته الكبرى. وكان مسرحه القارات الشاسعة. فنحن نجده في اوربا، وفي امريكا، وفي آسيا، يتخذ شتى المظاهر - فهو صحفي، وكاهن، وعميل سياسي، ونائب في البرلمان، ومزور، وجاسوس مزدوج، وراهب بوذي، وموظف كبير في الصين الامبراطورية!

ولد بمدينة باكس المجرية، على نهر الدانوب. وكان والده ثريا يعيش في ظروف مواتية، ويمتلك حوضا لبناء السفن. واكناتيس هو ابنه الاصغر، وقد تلقى تربية خاصة ليكون من رجال الدين، ولكنه انصرف الى دراسة اللغات الاجنبية.

ولما بلغ العشرين، بدأ حياة التجول؛ وكانت لندن اول مدينة حط فيها. وقد أهلته تربيته الدينية للانضمام الى الكنيسة الانكليكية. وبعد فترة قصيرة عاد الى وطنه، ومن هناك سافر الى هامبرغ، حيث غير معتقده الديني، فأصبح من اتباع الكيسة اللوثرية. وقد بلغ من الحظوة لدى رجال هذه الكنيسة، بحيث بعثوه الى كندا، ليكون هناك مبشرا لهم. ثم حولت البعثة التبشيرية في كندا الى الكنيسة الانكليكية، فما كان منه الا ان تحول، هو ايضا، الى هذه الكنيسة. وقد استمر في عمله التبشيري هذا، عدة سنوات، اكتسب خلالها سمعة طيبة كواعظ قدير. ثم عين في احدى الابريشيات، بمقاطعة كنت؛ ولكن وجهاءها لم يرتا حواله، واظهروا له بعض النفور؛ فقرر ان ينتقل الى لندن. وهنا اكتشف في نفسه موهبة الصحافة، فراح يرسل المقالات الى صحف عدة، طوال سنتين تقريبا.

وفي سنة ١٩٠٦ اتجه تريبتش نحو السياسة. فتعرف على سيبوهم راوتتري، العضو البارز في حزب الاحرار البريطاني، فظفر باعجابه وثقته، حتى جعله امين

سره. ويبدو ان تريبتش له طريقته الشاذة في التعبير عن امتنانه، اذ ماكان منه الا ان زور توقيع هذا السيد والصديق، فسلب منه سبعمائة باون.

وقد افلح في المعترك السياسي. ففي سنة ١٩١٠ دخل مجلس العموم نائبا عن دارلنكتن، ولكنه لم يحتل مكانة فيه؛ فلقد كان رجلا غريبا، وكانت لكنته الاجنبية تثير المرح والابتسام. ولكن حزبه كان يعتمد عليه؛ فأرسله اكثر من مرة في جولات تحقيقية لدراسة الاوضاع الاقتصادية، في انحاء القارة الاوربية. وبهذه الصفة، استطاع ان يتصل بكبار السياسيين، والدبلوماسيين؛ وان يوطد علاقاته بهم. بيد ان تلك الرحلات المتواصلة، وتلك الاتصالات المتعمدة، قد اثارت من حوله الشكوك. وحين جاءت الانتخابات السابقة للحرب العالمية الاولى، فقد مقعده في مجلس العموم؛ واصبح وضعه المالي سيئا.

ثم نشبت الحرب، فوقع في الحرج، فلقد كان اجنبيا، ومن رعايا دولة معادية. ومع ذلك، فقد كان هناك متنفذون مستعدون لتزكيته، لاي غرض يشاء. فقدم طلبا الى وزارة الحرب البريطانية، ليكون رقيبا على المراسلات باللغتين المجرية والرومانية، وظفر بهذه الوظيفة فعلا. ولكنه لم يمكث فيها طويلا، اذ كان زملاؤه في هيئة الرقابة ينظرون اليه بارتياب، ويعتبرونه عدوا في عقر دارهم. وعلى ذلك، اضطر الى ترك الرقابة، والى العودة الى الافلاس والحرج. واكثر من ذلك، صار الناس حتى في النادي الذي يرتاده، يضيقون به، ويديرون له ظهورهم؛ فبدأ يشعر بأن ابعاده آت لامحالة.

وازاء هذه الاهانات المتلاحقة، نبتت في ذهنه فكرة الانتقام من الانكليز. فعرض خدماته على الالمان، وصار من عملائهم. ثم اتصل بالاستخبارات البريطانية، بمساعدة اصدقائه المتنفذين، فعرض عليها ان يساعدها في مقاومة التجسس. وقدم الى رجال البحرية البريطانية خطة مدهشة، متقنة بالفعل. وخلاصة هذه الخطة ان ترسل بريطانيا الى بحر الشمال سربا من السفن الحربية، فيخبر هو الالمان بذلك، فيرسل هؤلاء قوة اعظم منها فتبيدها ابادة تامة. ولكنه يكون، في مقابل ذلك، قد كسب ثقة الالمان. وبعد تكرار هذه المناورة مرتين او ثلاث مرات، يأتي دور الضربة القاضية. ففي هذه المرة، يكون لبريطانيا عدد ضخم من البوارج في الانتظار، وهكذا تمحق البحرية الالمانية محقا.

ولكن البريطانيين لم يتحمسوا كثيرا لاستراتيجية هذا المجري الداهية؛ بل رأوا في تضاعيفها سوء مطامعه ونواياه. فهذه الخطة اذا نفذت، فسيحصل من ورائها على معلومات موثوقة، تتعلق بموقع وتوزيع القوات البحرية البريطانية؛ وعندئذ قد يقوم

ببيع هذه المعلومات الى الالمان. وعلى ذلك، اخبروه صراحة بأن خطته مرفوضة. ولكن تريبتش لم يستسلم للقنوط؛ بل اخرج من جعبته اقتراحا جديدا. فعرض ان يذهب الى روتردام، فيضع نفسه تحت تصرف الاستخبارات الالمانية، فيحصل على معلومات مباشرة لخدمة المصالح البريطانية. ووافقت السلطات البريطانية على هذا الاقتراح؛ فزود بجواز سفر، فانطلق الى روتردام، فاتصل بالقنصل الالماني هناك. وكان البريطانيون يراقبون حركاته اشد المراقبة، لاقتناعهم بأنه اذا كان يخدم اية جهة، فهي ليست بريطانيا على الاطلاق.

وبعد حين عاد من هولندا يحمل المعلومات. فوضعت بين يدي سر ريجنالدهول، رئيس الاستخبارات البحرية، فوجدها بعد الفحص الدقيق عديمة القيمة. بل استنتج منها ان هذا المغامر يلعب دورا مزدوجا. فاستدعاه وافهمه ان من الخير له ان يترك انكلترا في اسرع وقت. فحمد تريبتش الله على انه لم يقبض عليه؛ وفي اليوم التالي، استقل الباخرة فيلادلفيا الى نيويورك.

واتصل هنا بالاستخبارات الالمانية. ولكن يظهر ان هؤلاء ايضا قد فقدوا ثقتهم به، فرفضوا التعامل معه. فما كان منه الا ان استأنف عمله الصحفي، فراح يرسل المقالات للصحف الامريكية الموالية لالمانيا. ثم اكتشف التزوير الذي قام به في انكلترا، فطلبت الحكومة البريطانية تسليمه. وبعد مفاوضات طويلة، القى القبض عليه في الرابع من آب ١٩١٥، فنقل الى انكلترا، وهنا حكم عليه بالسجن.

وخرج من السجن في صيف ١٩١٩؛ وكان من متممات الحكم ان يبعد الى المجر. ولكن الاحوال في بودابست كانت مضطربة، فتأجل هذا الابعاد حتى شهر ايلول. ولم يجد في عاصمة وطنه شيئا يفعله، فتوجه الى المانيا. وكانت الظروف هناك مواتية للصيد في الماء العكر. حاول اولا ان يتصل بالقيصر السابق وهلم في هولندا، فأخفقت محاولته؛ ولكنها شجعت الاوساط المناهضة للحكم في برلين على تلقفه. واستطاع، كدأبه، ان ينال ثقة بعض الشخصيات البارزة في تلك الاوساط، فجعلوه مديرا للحملة الصحفية، التي كانت تمهد للثورة بزعامة كاب. ثم فشلت هذه الثورة، فصدر امر باعتقاله، ولكنه فر مع زمرته الى ميونخ، وهنا اسسوا مقرهم الجديد.

ومما يدل على قدرته ودهائه، انه استطاع هنا ان يقنع كلا من بوهنر رئيس الشرطة، وكاهر رئيس الوزراء، البافاريين، بالانضمام الى المتآمرين. وكان هؤلاء في حاجة الى المال؛ فتولى تريبتش هذه المهمة. زوده بوهنر بجواز سفر مزور، فذهب الى برلين مرتين؛ وفي المرة الثانية، التقى بالكابتن بابست الذي كان لديه اموال

متبقية من مؤامرة سابقة، والذي يعرف المكان الذي يأوى اليه لودندروف، في اعماق غابة مجاورة لروزنهاين. وذهب الاثنان لمقابلة لودندروف، فكان مما توصلوا اليه، نقل مقر العمل الى بودابست، ووجوب اقناع انصار الملكية من المجريين والروس بالاهتمام بالحركة، وتنظيم هذه من بودابست وفينا.

وكان من المزمع ان يعقد في برلين مؤتمر لانصار الملكية، فانطلق تريبتش الى هناك. ولكنه اسقط في يده، لان المؤتمرين لم يرحبوا به، بل حذروه من ان الشرطة تسعى في اثره، ونصحوه بأن يختفي عن الانظار. فأسرع ليلا الى مدينة تربن، القريبة من بوتسدام، فاختفى لدى امرأة كانت تعمل عنده في وقت من الاوقات. وفي اليوم التالي، كان ينتظر القطار الذاهب الى برلين، فعرفه احد رجال الامن، فقبض عليه. واقنعه تريبتش بأن يسمح له بالذهاب الى منزله تحت الحراسة ليجمع حاجياته، وهناك استغفل الحارس، فقفز من النافذة، وولى هاربا. ولكن الشرطة عوضت هذا الاخفاق خير تعويض؛ فقد وضعت اليد على غنيمة ثمينة - حقيبة ملؤها المراسلات السرية للمتآمرين.

واختفى تريبتش في بوتسدام لفترة قصيرة. ثم تسلل الى اصحابه في ميونخ. وكان بوهنر قد زوده بكتاب تعريف الى القنصل العام المجري هناك. ورحب هذا بابن وطنه، حتى انه كلف من يصحبه الى فينا، بصفة موظف قنصلي. ولكنه وجد نفسه هناك في وضع حرج، اذ كانت الشرطة السرية تضيق عليه الخناق. فاتصل بالسفير المجري كراتز، فأعد له جواز سفر جديد، انطلق به الى بودابست.

ولم يجد عملا مناسبا في بودابست. وبعد التأمل والقيام ببعض المحاولات، ادرك انه لم تبق له فرصة لاستخدام مواهبه، في المانيا والنمسا ايضا. فتوجه الى ايطاليا، وهو واثق من انه سوف يجد بين الفاشست مجالا فسيحا لنشاطه. بيد ان المؤامرات التي حاكها في ظل هؤلاء لماتزل طي الخفاء؛ حاشا ماقيل من انه قد كانت له يد في اغتيال الزعيم الاشتراكي ماتيوني، المناوى للفاشستية.

ومرت برهة من الزمن، لم يسمع فيها شيء عن هذا الرجل، حتى ظن انه قد مات. ولكن الناس اصبحوا ذات يوم على خبر مدهش اصابهم بالذهول. فقد نشرت صحيفة عالم نيويورك تقارير واردة من مراسلها في الصين عن رجل شيلي يقال انه مستشار سياسي للزعيم **Wu Pei Fu**، وانه ينظم دعاية واسعة ضد البريطانيين في الصين. ثم عرف الناس ان هذا الرجل الشيلي الغامض لم يكن سوى تريبتش. فلقد جذبته الفوضى السائدة في الشرق الاقصى، فوجد فيها متنفسا لطاقاته! وبكل صراحة، وبدون مبالاة، قص على المراسل الامريكي قصته الصاخبة، ومغامراته

المتذبذبة لم يخف منها شيئا مهما كان شائنا. ولكن شيئا واحدا في تلك القصة لم يدهش الناس، وهو اعتناقه في هذه المرة البوذية!

وقد جذب الانتباه اليه ثانية نبأ عودته من الصين. فلقد حكم على ابنه في انكلترا بالاعدام لجريمة قتل؛ فشاء ان يراه قبل التنفيذ. وقد رأفت به الحكومة البريطانية، فلم تضع العراقيل في سبيل عودته لهذا الغرض. ولكن هذا الرجل الذي كان ينفق الاموال الطائلة، ويبعثرها يمينا وشمالا، وجد نفسه حين وصل فرنسا عاجزا عن تدبير اجرة السفر الى لندن. فلم يستطع ان يرى ابنه، ثم انطوى ذكره في غياهب النيسان.

الافلات من بتروغراد

كان ابوه قبطانا ايرلنديا، وكانت امه روسية. اما هو فنادر الجرأة، فذ القابلية، متقن للالمانية والروسية. وقد كانت له في المانيا، ابان الحرب العالمية الاولى، انجازات اسطورية. لقد تغلغل داخلها، في مناسبات مختلفة؛ بل كان يقطع سماء المعركة بالطائرة، طولا وعرضا، ونار الحرب مستعرة؛ وهكذا استطاع ان يزود بريطانيا بمعلومات عسكرية هامة.

وفي اواخر الحرب، وقع عليه الاختيار، ليعمل ضد الالمان في روسيا القيصرية. بيد انه كان هنا اقل حظا، واسوأ طالعا. فلقد قامت الثورة البولشفية، فخصصت جائزة ثمنا لرأسه، فأصبحت حياته في خطر دائم. ثم ان الثورة شددت الرقابة واليقظة، فصار من المستحيل حتى ان يلملم خيوط شبكته في بتروغراد. فماذا بعد ذلك؟ ولكني اكتفي بهذه النبذة، ولاترك له الحديث عما جرى في النهاية. قال:

كنت راضيا كل الرضى عن مظهري الجديد. وحين نظرت نفسي في المرآة، ايقنت انه مامن احد سوف يعرفني. كانت لحيتي شيئا فظيعا، جعل لي سيماء الاوباش. وقد سمحت لشعر رأسي ان ينمو حسب هواه، وان يتخذ الشكل الذي يشاء. وتركت عادة الاغتسال حينا من الدهر؛ ثم اضفت الى ذلك سترة رثة، وسروالا ارثّ منها، فأكسبني ذلك هيئة يحسدني عليها كل متشرد، ويمر بها اقرب الناس الي مر الكرام.

لقد اخفقت المهمة التي جئت من اجلها الى روسيا اخفاقا ذريعا؛ فقد حكمت علي الحكومة البولشفية بالاعدام، على ان ينفذ الحكم فور العثور علي، وفي نفس المكان! وهكذا اصبح بقائي في روسيا ضئيل الفائدة، عظيم الخطر؛ فاتجهت نيتي الى مغادرتها بالسرعة التي استطيع.

وكان هناك طريقان للخروج من البلاد: الاول ان استقل القطار الذاهب الى فنلندا، وهذا هو الطريق الذي يسلكه المهاجرون. وقد كانت الحكومة الفنلندية

مستعدة للمساعدة، ولكن الدوريات الروسية كانت اكثر استعدادا للمطاردة. ومع ذلك، كان الهرب عن هذا الطريق ممكنا؛ ولايتطلب سوى جواز آخر، واجتياز الحاجز الاعتيادي بصورة من الصور. واما الطريق الثاني، فهو جسر الحدود في بابلوا استروف؛ وهذا يستلزم ان ادفع لحراس المحطة والجسر؛ مايحملهم على ان يديروا لي ظهورهم، وانا اخرج من البلاد.

كانت الاحوال في بتروغراد هادئة نوعا ما؛ فعزمت على اختبر تنكري، بأن اظهر في الاماكن العامة. وكنت اثناء اقامتي بهذه المدينة اسكن مع الاصدقاء، وانتقل من بيت الى بيت، كما كنت اصنع في موسكو. وهذا التنقل لامعدى عنه، بالنظر ليقظة لجان البيوت في مراقبة النزلاء غير المسجلين. واقل خطأ، سوف لايؤدي الى اكتشاف امري فحسب، بل سوف يصب الغضب والعذاب على رؤوس الذين آووني. وفي هذه الفترة القلقة، الحرجة، استبد بي وهم مؤداه ان كل بتروغراد عيون ترصدني! ولكن ازاء هذا الوهم، كان لدي العزم على ان ارسل عدة رؤوس الى دار جهنم قبل ان اصوب طلقة الى رأسي، فأريح واستريح!

وفي البداية لم اكن اغامر بالخروج في وضح النهار، بل كنت اخرج بعد هبوط الظلام. وزادني مرور الوقت ثقة بتنكري؛ فجعلت اتجول في الشوارع المزدحمة في كل وقت. وكنت اتعمد ان امر بالقرب من الذين يعرفونني، وانا امشي مسرعا المشية ـ التي تلائم هيئتي. وبينما كنت اسير ذات مرة في نيفسكي بروسبكت، وقع ماكنت احذر. فقد اجتزت شخصا بدا لي اني اعرفه، وانه قد عرفني ايضا، بدا ذلك من النظرة الحادة، المتشككة، التي رشقني بها. وبعد ان سبقني بنحو عشر خطوات، استدار الى الخلف ثم اقبل نحوي. فاندفعت قدما، ولكني بعد قليل سمعت وقع اقدامه خلفي، ثم همس فوق كتفي يقول:

ـ سدني جورجفيتش!!

فلم استدر، ولم اقل شيئا، في حين استطرد الهمس:

ـ لاتخف، اني صديق.

ثم دس في يدي عنوانا يقع في كامينوستروفسكي بروسبكت، واضاف قائلا: في خلال نصف ساعة.

ومضيت في طريقي وانا اسائل نفسي: هل اذهب؟ اهو فخ؟ كلا، بالتأكيد. فلو كان هذا الرجل عدوا، لكشف امري على الفور، وفي نفس المكان. ثم سواء كان هناك فخ او لم يكن، فلقد عرفت الآن؛ وخير لي ان اواجه هذه الحقيقة بدلا من ان اهرب منها. وذهبت الى العنوان المذكور، فطرقت الباب.

وادخلني الرجل الذي عرفني نفسه، فقادني الى غرفة تكاد تكون خاوية من الاثاث، ثم استدار نحوي، وجعل يتفحصني عن كثب، ثم قال:
- لقد غيرتك هذه اللحية ياسدني، فما كان ليعرفك حتى اقرب اصدقائك.
فألمحت قائلا:
- ولربما كان هذا هو سبب اطلاقها. ولكن هل لي ان اسأل من انت؟ وكيف اتفق انك تعرفني؟
- انا الرجل الذي كان يمنع هذه اللحية من النمو! الم تعرفني حتى الآن؟
وتذكرت، فقلت:
- آه! انك الحلاق الكسندر، الذي كان يعمل في محل موليه، ويحلق لي ذقني في الايام الخالية. وكان سروره بلقائي مثل سروري بلقائه. وراح يعد «السماور» لصنع الشاي، وهو في مرح وانشراح.
قال بشيء من الاستغراب:
- لست ادري لماذا عدت الى روسيا، بعد ان خرجت منها سالما؟
- لقد عدت في مهمة؛ ولكنها فشلت الآن. واعز امنية لدي في الوقت الحاضر هي ان اخرج ثانية. قال بلهجة اليأس:
- ليس من السهل، الآن، ان تدخل او تخرج. ولكن اي طريق تفكر ان تسلك؟
- جسر بابلوا اوستروف. وانا مستعد لدفع الثمن. قال وهو يهز رأسه بخطورة:
- ليس هذا بالرأي السديد. قد يستطيع غيرك ان يسلك هذا الطريق بثمن. اما انت، فلا. فمامن احد في روسيا كلها، يستطيع ان يدعك تخرج مهما دفعت. وكما عرفتك انا، سيعرفك احد الذين وضعوا في كل محطة لرصدك. لقد تعقبوا اثرك حتى هذه المدينة؛ وهم واثقون من انك لما تزل فيها. واذا سمعتهم يقولون إنك ربما قد غادرت البلاد، فذلك لكي يغروك بأن تخرج من مخبأك. كلا، ياسيدي. دعنا نفكر في طريقة اخرى.
وماكان لي الا ان اتفق معه؛ لاسيما بعد ان ظهر ان تنكري ليس متقنا الى الدرجة التي كنت اظن.
قال الحلاق:
- اني، الآن، اعمل كاتبا في احدى المؤسسات، فليس هناك من شكوك حولي. وعلى ذلك، فأنت آمن هنا في شقتي. ولدي سرير زائد، فاذا وافقت على المقام معي، فأن هذا مما يشرفني.
ومكثت مع الكسندر حوالي اسبوعين، كان في اثنائهما يبحث كل السبل

لاخراجي، وكنت التزم الحذر فلا اغادر الشقة على الاطلاق. ثم اقبل ذات يوم يصطحب رجلا ضخما، مهيبا، عبوسا، يدل مظهره على انه اما تاجر كبير، او سمسار للاوراق المالية، ان كان من الممكن ان توجد مثل هذه الظاهرة في روسيا في تلك الفترة.

قال الكسندر يقدمه اليّ:

- السيد فان دين بوش.

فانحنى الرجل بقلة اكتراث، بينما استطرد الكسندر يقول:

- ان السيد فان دين بوش من هولندا. وقد جاء الى بتروغراد ليعقد صفقة تجارية مع الحكومة السوفياتية. ومركبه الصغير راسٍ الآن في النهر. لقد شرحت له كلا من ورطتك وحاجتك؛ وهو يرى انه قادر على مساعدتك. فشكرت الرجل الغريب باللغة الالمانية، فقال:

- لقد فهمت انك متورط في مشكلة مع الحكومة هنا. وليس من شأني ان اتقصى ماهي هذه المشكلة. ولكنك تدرك بالطبع ايها السيد...

- برغمن.

فسأل:

- انت الماني؟

فأحنيت رأسي، بينما استطرد يقول:

- انت تدرك بالطبع، ايها السيد برغمن، ان مساعدتي لك قد تلحق بمصالحي بالغ الضرر. وقد تتجاوز ذلك الى تدمير المهمة التجارية الدقيقة التي اقبلت من اجلها، والى تعريض نفسي لغياهب السجن.

فقلت له مطمئنا:

- اني ادرك هذا بالطبع، وسوف اعوضك عنه. كم تريد؟

- ستين الف روبل.

- سنأخذها.

- ومتى الدفع؟

- نصف الآن، ونصف حين الوصول.

وعددت له ثلاثين الف روبل.

قال الرجل، وهو يدس النقود في جيبه:

- سأبحر غدا عند منتصف الليل، فتعال مبكرا، فأني لاأستطيع الانتظار. ان صديقك يعرف مكان مركبي، وسوف يقودك اليه. ستجد لدى الرصيف قاربا في

انتظارك. وفي ليلة الغد سيكون الظلام دامسا، اذ ليس هناك قمر في كبد السماء ولكن اذا شعرت بأحد يتعقبك، فأياك ان تحاول الصعود الى المركب.

وفي اليوم التالي بعثت الكسندر الى مأواي السابق، فاستطاع ان يستخلص لي من هناك بدلة وبعض حاجات اخرى لاغنى عنها. ثم اقبل على شعري، وشاربي، ولحيتي، بمقص يكاد يكون اعمى، فجعل يقص ويشذب، من هنا وهناك، لكي يزيدني غرابة وشعوثة. ثم تركني على ان نلتقي مساء في الساعة الحادية عشرة، عند خرائب كاتدرائية كازان. وقد تقرر ان اكون في المركز في آخر لحظة، مخافة ان يأتي بعض الحراس للتفتيش، وهذا امر شديد الاحتمال.

وراح النهار يتقدم بطيئا، ثقيلا، كئيبا. ورحت اسلي نفسي بالصحف التي جلبها لي الكسندر. وكان فيها عدة اشارات الي، والى المؤامرة الفاشلة التي لعبت دورا فيها؛ اما سائر الاخبار، فهي قليلة. وكان اكثر مافي تلك الصحف يتألف من الدعاية؛ والكلام على الحرب القريبة ضد الدول الاستعمارية الغربية.

ثم هبط الليل، يزفه ظلام حالك، وريح صرصر. وكانت في قبة السماء قطع كبيرة من الغيوم، يطارد بعضها بعضا، ثم القت بوابل من المطر. وحين انطلقت الى اطلال كاتدرائية كازان، كانت الشوارع مقفرة، يتصارع في انحائها الريح والمطر. وكان الكسندر ينتظرني في احدى زوايا الكاتدرائية، فأطلق لي اشارة، فانضممت اليه. قال هامسا:

ـ انتظر هنا، ففي داخل المركز ضوء، وهذه اشارة من فان دين بوش بوجود محذور. ابق مكانك ريثما اتحرى الوضع.

ثم اختفى وسط الظلام والمطر في اتجاه الرصيف. وعاد بعد حين تبدو عليه امارات القلق. قال:

ـ ان وجود الضوء في المركب، وعدم وجود القارب عند الرصيف، يدلان على ان الامر ليس على مايرام. لنعد الى الشقة.

ولكني رأيت في تلك اللحظة شيئا جعلني اقول:

ـ لقد فات الاوان ياالكسندر، فهناك من يتبعك! وظهر في اثر الحلاق رجل عملاق، حتى اذا اقترب منا اطبق شبحه الضخم علينا وسط العتمة. فأمسكت بمسدسي، وادركت ان النهاية قد دنت. ثم جاءت المفاجأة السارة، فقد قال المارد باللغة الالمانية:

ـ هر برغمن؟ انا ميكانيكي السيد بوش. لقد رأيت صاحبك، فجئت محذرا. في المركب، الآن، قوميسار فلا تستطيع ان تأتي حتى ينصرف.

- ومتى يعتزم هذا القوميسار ان ينصرف؟
- حتى يبحر المركب. ان السلطات تشتبه بشيء ما. فبالامس جاء قوميسار في غياب السيد بوش، والقى عدة اسئلة. وكان حريصا على ان يعلم اين ذهب سيدي. وحين عاد السيد بوش، كان هناك من يتبعه. وفي هذه الليلة جاء ذلك القوميسار ثانية، واصر على ان يتحرى جميع البحارة. ثم تولى السيد بوش امره؛ فهو، الآن، يلهيه ويكرمه داخل قمرته، حتى يحين وقت الابحار. ذلك انه قد ابدى رغبته المؤدبة في ان يبقى حتى اللحظة الاخيرة، ليلوح لنا بيديه حين نغادر.
- فمتى نصعد الى المركب اذن؟
- حين ينصرف القوميسار.
- واذا رآنا؟
- ايها الهر برغمن، ان القوميسار لن يستطيع، آنئذ، ان يرى احدا!

وتجاوز الوقت الواحدة بعد منتصف الليل، فطلع القوميسار يترنح، فيسنده بعض البحارة؛ وهو لايكاد يعرف موطىء قدميه. فضغطت على يد الكسندر بسرعة، وانطلقت مع الميكانيكي نحو القارب.

وفي المركب زودني السيد بوش بثياب جديدة، وقدم لي شرابا حارا. وحين تململ المركب فوق الماء، ودوي صوت المكائن، اخذت موجات من الحبور تتدافع في داخلي، حتى شعرت كأني اختنق. ثم استرجعت انفاسي، وتطلعت الى المدينة النائمة، بينما راحت اضواؤها تبتعد، وتخبو، حتى تصبح مثل وميض الجمر. واستدرت الى الناحية الاخرى، فاذا بالبحر الواسع، ثم هلسنكفورس.. ثم كوبنهاكن.. ثم انكلترا!

عين الصباح

اما الوثائق الرسمية فتذكر ان اسمها مرغريتاجيرترود زيل، ثم انها مطلقة تدعى ماكلويد. اما هي، فقد نبذت كلا الاسمين، واتخذت لنفسها هذا الاسم الشعري: عين الصباح، وهو باللغة الجاوية: ماتا هاري.

وقصة حياتها اسطورة من الاساطير، شغلت الكتاب ورجال الفن طوال النصف الاول من هذ القرن؛ فقد الفت عنها الكتب، وعقدت الفصول الطوال، واخرجت الافلام. ذلك انها نسيج وحدها بين النسوة اللواتي برزن في الحرب العالمية الاولى. كانت بارعة الجمال، عظيمة الجرأة، شديدة الطيش، ساحرة الفن. وكانت المسارح الاوربية تتهافت عليها، وتتجاذبها بشتى المغريات، فتظهر في لندن، وباريس، وبرلين، وروما، بجسمها اللدن، الرشيق، العاري، يتلوى كالافعى برقصات المعابد الهندية، فتنتزع الاعجاب، وتدير الرؤوس، وتدمي الايدي بالتصفيق. وكانت الى هذا كله، عشيقة دولية ضحاياها كبار الرجال، من مختلف المسالك، وشتى الاقطار، فتفرغ صدورهم من الاسرار، وجيوبهم من الاموال، ثم تلفظهم اما رهن الافلاس او الدمار! وفي المانيا تسامت بحبها حتى بلغت ولي العهد؛ وفي فرنسا هبطت به حتى بلغت ضابطا روسيا بسيطا، خطير الجراح، واعمى!

ولدت سنة ١٨٧٦ بمدينة ليووردن في هولندا. وقد سهل لها كونها من رعايا هذه الدولة المحايدة، ان تتنقل في انحاء القارة الاوربية، في الوقت الذي كانت فيه تمزقها الحروب، وتقسمها الحواجز، فتجمع المعلومات الخطيرة، وتبعث بها الى مستخدميها في المانيا، وفرنسا، وبلجيكا، وانكلترا.

وفي باريس كانت تقيم في المنزل الانيق، الفخم، رقم ١١ الواقع في شارع وندسر، في منطقة نييّ، على نفقة مركيز مليونير. ولقد كان بوسعها ان تعيش في ظل النعيم، كسيدة من سيدات الصالونات الفرنسية؛ ولكن شذوذها واندفاعها، ومؤهلاتها، قد جرفتها نحو الخدمة السرية، ثم ادت بها هذه الى نهايتها التعسة.

جرت محاكمتها سنة ١٩١٧ في باريس، خلف ابواب مغلقة. وفي اثناء هذه المحاكمة قلبت صفحات حياتها، وكشفت خفاياها، فكانت قصة مثيرة اغرب من الخيال، استبدت بالنفوس، واستولت على الرأي العام في كل مكان. وكان الذي اذاع بعض اسرار هذه المحاكمة، هو الميجر كونت ماسار.

كانت ماتاهاري في اليوم الذي اعلنت فيه الحرب، تظهر على مسرح ونتركارتن ببرلين كراقصة هندية. وهنا افلح الالمان في ضمها الى الخدمة السرية، وجعلوارمزها H.21. ثم امروها بالذهاب الى باريس بعد ان دفعوا لها مقدما ثلاثين الف مارك. ولم يكن ذهابها الى باريس ليثير اية صعوبة؛ فهي من رعايا دولة محايدة، وفنانة عالمية تحظى بالتقدير والاعجاب. وقد ذكرت تصفية شؤون منزلها بباريس، كحجة لهذه الزيارة؛ ثم توجهت الى هناك عن طريق باجيكا، فهولندا، فانكلترا.

وبعد فترة من الزمن، تطوعت كممرضة، فانطلقت الى الجبهة الفرنسية. وهنا التقت بالضابط الروسي، الجريح، الاعمى، ماروف، فكرست له كل عطفها وحنانها. وقد صرحت بانه كان الرجل الوحيد الذي احبته من كل قلبها. وكانت طوال هذه الشهور على اتصال دائم برئيس الخدمة السرية الالمانية في امستردام، وكانت السفارة الهولندية بباريس هي التي تتولى نقل رسائلها، بعد ان جعلتها تعتقد انها تراسل ابنتها. ولقد كان من السهل عليها، وهي الخبيرة في الحب والفن، ان تسيطر على الضباط الفرنسيين، ولاسيما الطيارين منهم، فتنتزع منهم في لحظات النشوة، المعلومات الهامة. وهكذا استطاعت ان تزود القيادة الالمانية بتفاصيل عن شبكات العملاء الفرنسيين في الجبهة الالمانية، كما فضحت لها الاستعدادات التي كان الفرنسيون يقومون بها، تمهيدا لهجوم مقابل في سنة ١٩١٦.

ومن الغريب ان الاستخبارات البريطانية كانت اول من شك في هذه المرأة، فنبهت السلطات الفرنسية حولها. فتحركت هذه لمراقبتها، فتوصلت هي ايضا الى مااثار شكوكها ولم تكن ماتاهاري اقل يقظة؛ فشعرت بأنها مراقبة، وتركت الجبهة عائدة الى باريس. ولكنها ظلت قلقة حتى في بيتها؛ ولكي تتلخص من هذا القلق البغيض، عرضت خدماتها على الطرف الآخر! فقد ذهبت الى المكتب الثاني، التابع للاركان الفرنسية العامة، وقدمت اليه بيانا بالاماكن التي تتمركز فيها الغواصات الالمانية على الساحل المراكشي. ولم يكن ذلك البيان سوى اختلاق محض. ثم اقترحت ان ترسل الى المنطقة المحتلة في بلجيكا، لتحمل التعليمات الى الوكلاء الفرنسيين الموجودين هناك. ورأت الاستخبارات الفرنسية في هذا الاقتراح فرصتها، فتظاهرت بقبوله، وسلمت الى ماتا قائمة بأسماء اولئك الوكلاء. وكانت تلك الاسماء

كاذبة حاشا اسما واحدا كان لدى الاستخبارات الفرنسية ما يحملها على الاعتقاد بأن صاحبه جاسوس مزدوج. وتسلمت ماتا القائمة، وهي لاتدري انها قد تسلمت فخا. وبعد ثلاثة اسابيع وقع ماكانت تتوقعه الاستخبارات الفرنسية ـ لقد اعدم الالمان ذلك الوكيل في بروكسل. ولم يكن لديهم في تلك الفترة، مصدر يعرفون منه اسم ذلك الوكيل، الا القائمة التي تحملها ماتاهاري.

ولكن السلطات الفرنسية لم ترد ان تتسرع في الاطباق عليها، من قبل ان تمتلك الدليل القاطع. لقد كانت لديها شكوك قوية، ولكنها لاترقى الى درجة اليقين، وعلى ذلك تركتها تغادر فرنسا. ومنذ هذا الحين اصبحت حركاتها يكتنفها الغموض؛ ولكن الشيء المؤكد انها استطاعت ان تتخذ طريقها الى المانيا؛ فقد التقى بها في كولون صديق لولي العهد الالماني، فكان له معها حديث طويل. وقد فهم من هذا الحديث انها تعتزم العودة الى فرنسا عاجلا او آجلا، ذلك انها ملزمة بتنفيذ بعض العقود المتعلقة بمهنتها. وحين فارقته قالت في وداعها هذه الجملة الغريبة، ذات المغزى: تذكرني كامرأة فعلت وقاست الكثير من اجل المانيا.

وكانت السلطات البريطانية في هذه الفترة ترصد حركاتها؛ وكانت اكثر تسرعا من السلطات الفرنسية، فقد القت القبض، ونقلتها الى لندن. وهنا سلط عليها سر باسل تومسن، رئيس سكوتلنديارد، استجوابا دقيقا مسهبا؛ فراحت تكافح بمهارة يائسة لتجنب الفخاخ التي نصبها لها، الواحد تلو الآخر؛ ولكن المقابلة لم تكد تنتهي حتى كان بين يديه اعتراف منها بأنها تعمل في الخدمة السرية، ولكن لصالح فرنسا، وليس لصالح المانيا. ومهما يكن من شيء، فأن الانكليز قد تركوها، ايضا، تغادر البلاد متوجهة الى اسبانيا. ولسنا ندري اذا كانوا قد كلفوها بمهمة خاصة.

وكان وصولها الى اسبانيا معروفا لدى الفرنسيين والالمان على السواء. ومنذ اللحظة التي وطئت فيها قدماها الارض الاسبانية، تولى امرها احد رجال الخدمة السرية الفرنسية، فجعلها بين سمعه وبصره لاتكاد تفلت منها ابدا. وقد بلغ من نجاحه في هذه المهمة ان ارسل الى رؤسائه صورة التقطت لها حين وصولها وقد ظهر هو واقفا الى جانبها!

وفي مدريد استقرت في جناح منتقى بعناية، في فندق فخم، حديث. وفي فترة قصيرة توطدت العلاقة بينها وبين الملحق الالماني هناك؛ واصبحت اتصالاتها به مستمرة، ومنتظمة. وكان الملحق العسكري الفرنسي مقيما في الفندق نفسه؛ فراحت تلقي بشباكها حوله، وتكرر مسعاها للسيطرة عليه، ولكنها اخفقت في ان تستخلص منه شيئا؛ ذلك لانه سبق ان حذر منها تحذيرا شديدا. فكان يتجنب جميع

مبادراتها بتعلات مختلفة، دون ان يشعرها بأنه يعلم حقيقة امرها. وهكذا اسقط في يد الملحق الالماني من هذه الناحية، واسقط في يدها هي ايضا، اذ لم تتسلم من هذا سوى بعض الهدايا البسيطة، في حين انها كانت تريد المبالغ الضخمة دائما. وبعد ان بقيت في اسبانيا فترة ليست بالطويلة ادرك الالمان انهم لن يستفيدوا منها شيئا هناك، فقرروا ان تعود الى باريس، وكان هذا القرار متفقا مع رغبتها الشخصية.

وهنا وقع الشيء الذي ختم حياتها. فقد ارسل الملحق الالماني الى رئيس الاستخبارات في امستردام برقية مستعجلة، يطلب فيها ان يدفع الى الرمز **H 21** خمسة عشر الف بيز تافي باريس، وبواسطة السفارة الهولندية هناك.

والتقط برج ايفل هذه البرقية! وكان الفرنسيون في هذا الوقت يعرفون صاحبة هذا الرمز، فتركوها تذهب الى باريس، وتتسلم المبلغ المذكور، ثم القوا عليها القبض، واودعوها سجن سان لازار.

وبدأت محاكمتها امام المحكمة العسكرية. وعلى الرغم من رهبة المحكمة، وخطورة التهمة، فأن الاجراءات لم تخل من مواقف دراماتيكية، داعية الى الابتسام احيانا! وقد بذلت ماتاهاري جهودا بارعة في الدفاع عن نفسها. وقد اعترفت بكل صراحة بالنقود التي كانت تحول اليها من امستردام، ومراسلاتها مع رئيس الوكلاء السريين الالمان في هولندا، بيد انها احتجت اشد الاحتجاج على تهمة التجسس، زاعمة ان الامر كله يدور حول علاقات غرامية، وان الرئيس المذكور نفسه كان من بين عشاقها.

والغريب ان محاميها، وهو رجل مسن، قد وقع في شرك غرمها؛ فراح يغدق عليها الزهور، والحلوى، ويبذل قصارى جهده لانقاذ حياتها. وقد استدعى كشاهد دفاع، دبلوماسيا فرنسيا يحتل مركزا رفيعا في وزارة الخارجية الفرنسية، فذكر هذا انه كان اول عشيق لها بعد طلاقها، وانها قد قضت معه ثلاث ليال على اثر عودتها من مدريد، فكانت الموضوعات التي حدثته فيها تدور كلها حول الفن الهندي! وابرز محاميها كذلك رسالة عاطفية للغاية موجهة الى موكلته من وزير دفاع فرنسي سابق، فأثارت في المحكمة لغطا وابتساما! والظاهر ان ماتاهاري كانت تتعمد انشاء مثل هذه العلاقات، لكي تكسب اهمية خاصة في اعين مستخدميها.

وصدر الحكم عليها بالاعدام. فهزت كتفيها، وابتسمت ابتسامة متوترة. وفي اليوم السابق للتنفيذ كانت ترقص في زنزانتها، وتستحم بالماء الممزوج بالحليب!

وقد حددت الساعة السادسة صباحا، من اليوم الخامس عشر من تشرين الاول ١٩١٧، موعدا للتنفيذ. وقد حاولت الحكومة الهولندية، عبثا، التدخل لوقفه في

اللحظة الاخيرة. وكذلك بذل محاميها جهودا يائسة لتأجيل التنفيذ. ومن ذلك انه ادعى انها حامل منه! ولكن ماتاهاري لم تعجبها استراتيجية محاميها هذه، فرفضت ان يجري لها الفحص الطبي، وفضلت ان تستسلم للقضاء المحتوم.

وفي الدقائق الحرجة التي سبقت اعدامها، جلست بكل هدوء تسطر بعض رسائل الوداع. ثم اصطحبها حارس عسكري في سيارة الى مكان التنفيذ، في فنسان. وبكل رزانة وكبرياء مشت بخطى ثابتة امام فرقة الاعدام، ثم ودعت محاميها فعانقها، والاخت التي سهرت عليها في السجن فسالت دموعها، ثم اقترب منها الكاهن فتلقت منه آخر كلمات العزاء. واقبل جندي ليقودها الى العمود فيوثق ذراعيها، ولكنها ابت ذلك، وسارت بنفسها الى المكان، وأبت بالمثل ان تعصب عيناها.

ورفع رئيس الفرقة حسامه، فدوى قرع الطبول، وتراجع الكاهن الى الخلف، وتبسمت ماتاهاري، فألقت قبلة لمحاميها واخرى للكاهن. ثم صدر الامر القصير الحاد: اطلق.

وتقدم رئيس العرفاء، فأرسل الى اذنها اطلاقة الرأفة! ثم شهد الطبيب بالوفاة.

والقي الجسد الذي طالما سبى العقول، وامتلك القلوب، في تابوت خشبي ابيض، بسيط؛ وبذلك اسدل الستار على الفصل الاخير من هذه المأساة او الملهاة!

الصمت ثمنه الموت

دوريان بلير دولي المنشأ: فهو اسكتلندي الاب، سلافي الام، روسي الولادة. ومع ذلك، فهو انكليزي حتى اعمق اعماقه. وقصته تبدأ في آب ١٩١٤، حين اقنعه القنصل الروسي في هل بأن من واجبه ان يخدم قضية الحلفاء، بانشاء شبكة تجسسية لحساب الروس. وبعد تردد قبل ان يذهب الى سانت بيترسبورغ، للاتصال بأناس معينين، وبضمنهم شخصية هامة في البلاط القيصري.

وفي بيترسبورغ وجد بلير نفسه وسط مؤامرات البلاط الروسي. ومع ذلك استطاع ان يشق طريقه، حتى اصبح ضابطا في فيلق الطيران القيصري. وكان هدفه الحقيقي التأكد مما اذا كان راسبوتين يستخدم نفوذه لدى القيصرة لمساعدة الالمان. وقد توصل الى ان هذا كان يتآمر مع الالمان فعلا. وكان هؤلاء يخططون لتنفيذ فكرة جهنمية هي محق سكان سانت بيترسبورغ بالحرب الجرثومية. ولكن المؤامرة احبطت من قبل العناصر المناوئة لراسبوتين، ثم قتل هذا الاخير.

وشهد بلير، بعد ذلك، الاشهر الاولى لميلاد الثورة البولشفية؛ واتصل بالزعماء الاوائل للنظام الجديد، من امثال لينين، وتروتسكي، وكامينيف، ورادك، وكريلنكو، وغيرهم.

ولكن مهمته في روسيا قد بلغت نهايتها في امسية عيد الميلاد سنة ١٩١٧، حين القت عليه القبض الشرطة الثورية، فمكث في السجن شهورا، ثم حكم عليه بالاعدام. وفيما يلي يصف لنا ايامه الاخيرة في السجن، والشروع في تنفيذ حكم الاعدام عليه، ثم النهاية الغريبة، المثيرة!:

وقعت المذبحة في سجن كروس، وبقي السجناء في الايام القليلة التالية، حائرين، قلقين، يطغى عليهم الخوف والاستياء. وكان الحراس والجنود، يطوفون في انحاء السجن، بشيء من الانزواء والخجل. وعلى ذلك صار من الضروري انشاء علاقة جديدة بين السجناء والحراس، بعد ان انبتت العلاقة الانسانية القديمة،

وحلت محلها عداوة مبينة، وهوة عميقة. ولقد كان من المحتمل ان يقع صدام جديد في اي وقت.

وبعد المذبحة بثلاثة ايام، استدعتني السيدة كريلنكو، لتستجوبني حول مسدس وجد في حوزتي داخل السجن. وهي زوجة القائد العام للجيش البولشفيكي، وعضو في محكمة بتروغراد الثورية. وكانت بسيطة المظهر، متوسطة العمر؛ لكنها صارمة لاتطيق ان تعصى، او ينطق امامها باي هراء!

وحين اتممت روايتي حول ذلك المسدس، ارسلت الي نظرة فاحصة، ثم قالت:

- لاتعتقد انك تستطيع تضليلي. مع ذلك، فانا لااتوقع منك ان تقول الحقيقة؛ لان هذه اذا عرفت، تبينت العلاقة الوثيقة بين هذا المسدس، والمؤامرة للاستيلاء على بيروغراد، وقلب حكومة العمال.

- انا آسف. ولكني لااعرف شيئا عن هذه المؤامرة.

- اظن انك تعرف. هل تنكر معرفتك للكوماندر كرومبي في السفارة البريطانية؟

- لااعرف اي شخص بهذا الاسم.

- الا يهمك ان تعرف ان الكوماندر كرومبي هو ميت الآن؟

- كلا البتة، مادمت لااعرفه.

ثم غاصت في كرسيها، وراحت تقلب اوراقها وقالت فجأة:

- ان ادعاءاتك لاتنطلي عليّ؛ ولاتستطيع ان تخدعني بتصرفك الرجولي، وبرودك البورجوازي. فنحن نعرف مؤامراتك ضد العمال لمصلحة الحكومات الرأسمالية. لقد قتل الكوماندر كرومبي حين حاول المقاومة؛ وحصلنا على جميع اوراقه وشفراته، كما القينا القبض على رجال السفارة، فعرفنا جميع اعوانه ووكلائه. وكذلك لوكهارت، فهو الآن سجين في موسكو. ولقد عرفنا تفاصيل مؤامرة لاغتيال بعض رجالنا، ورشوة جنودنا للقيام بثورة مضادة. ونحن الآن بسبيل اتخاذ الاجراءات اللازمة حول ذلك. والآن، الا تخبرنا بما تعرف؟ وبمن اعانك على تهريب هذا المسدس الى داخل السجن؟ وبما كنت تنوي ان تفعل به؟

فلم اجب، وبقيت صامتا، غير مبال بما قالت. وفي الواقع، اني كنت لااعرف شيئا عن تلك المؤامرة، ان كانت هناك مؤامرة حقا. فراحت تسب وتشتم، ثم ختمت ذلك بأن سحبت المسدس بشكل ينم عن انه قد كان من اركان تلك المؤامرة الخطيرة. وبذلك تحولت المقابلة الى مشهد صبياني؛ فلم اتمالك من ان انفجر ضاحكا.

فجن جنونها، وكأنها قد مسها تيار كهربائي. فاندفعت نحو الباب، فأزاحت

الحارس عن طريقها، وراحت تجري في الممر وهي تصرخ:
- ايها الرفيق بافلوف... ايها الرفيق بافلوف... وبعد دقائق، عادت ومعها مدير السجن. فقالت له:
- ايها الرفيق بافلوف، لقد اهان هذا الرجل ممثلة العدالة فلن اواصل استجوابه. وهو يبدو من جميع تصرفاته انه عدو للطبقة العاملة، وانه سوف يفعل كل ما في وسعه لقلب حكومتها. واني سوف ارفع ماعلمت من امره الى المحكمة، ولها ان تقرر ماذا تصنع به. والآن، خذوه الى زنزانته، وراقبوه جيدا ليل نهار. وسوف تصل الاوامر بشأنه في الوقت المناسب.

وفي اليوم التالي، جاءني رد السيدة كريلنكو في صورة وفد من ذوي الستر الجلدية. فأخرج احدهم ورقة، وراح يقرأ بلهجة مسرحية، لماذا لم اعد اطاق فوق التربة الروسية؛ ووجوب ازاحتي باعدامي؛ ومكان التنفيذ وزمانه. ثم دفع الى الورقة، وطلب اليّ ان اوقع عليها. فقلت:
- اوقع على ماذا؟
- وقع تحت هذا الامر، اقرارا منك بأنك قد علمت بمحتواه!
- ماهذا الذي تريده مني ايها الرفيق؟ جواب على دعوة؟ وعد بأني سأكون هناك؟ ابعد هذه الورقة عني.. اني لن اوقعها؛ ولست اعترف بكلمة مما جاء فيها.
- سواء لدينا ان توقع او لاتوقع. ان التنفيذ سوف يتم في كلا الحالين. ولكننا اردنا ان لاتشكو من انك لم تحط به علما.
- اني ارفض التوقيع، حتى ارى القوميسار بافلوف.
- حسنا جدا.

وخرج الوفد.

كانت مقابلتي لبافلوف قصيرة، عقيمة. فان المحكمة قد اصدرت الحكم بناء على تقرير السيدة كريلنكو. وهو لايمكن استئنافه. وفي اليوم التالي، ايقظت في حوالي الساعة الثالثة صباحا، فأقتدت الى شارع كوروخوفايا في سيارة مكشوفة، محشورا بين حارسين ومسدسين ضخمين. وكان المطر يهمي، فيبلل فمي واجفاني، فحسبت ذلك من قبل الوداع! وحين وصلنا الى مقر الشرطة، قال قائل:
- هذا هو الجاسوس الانكليزي... اليس كذلك؟ اجلبوه الى هنا.

فاقتادني في الممر موظف يحمل حقيبة جلدية. واتفق ان كان يسير امامنا ببطء، رجل طويل، نحيف، مألوف الهيئة لدي بعض الشيء. وحين التفت ليلقي علينا نظرة، ونحن نجتازه، عرفت انه دزيرجينسكي. ولم اكن اتوقع ان اراه في هذا

المكان، فلقد سبقَ ان انتقل مع الحكومة البولشفية الى موسكو. وكان يعرفني؛ فحثني دافع قوي على ان اكلمه؛ ولكنه سبقنى مخاطبا صاحب الحقيبة:
- لحظة واحدة... اين انت ذاهب به؟
- هذا جاسوس انكليزي، حكمت عليه المحكمة العسكرية بالاعدام. وقد رفض ان يوقع الامر من قبل، فعليه ان يوقعه الآن. فألقى علي دزيرجينسكي نظرة ثاقبة، وكأنه يفكر في امر. ثم سأل:
- في اي ساعة امر بالتنفيذ؟
- الساعة السادسة، ايها القوميسار.
- سيوقع فيما بعد. اجلبه الى غرفتي.
وادخلت الى غرفة ليس فيها سوى منضدة وكرسيين. فقال القوميسار لمن معي:
- انتظروا في الخارج. وسوف ابعث في طلبكم.
ثم تحول الي فقال:
- اجلس ايها المواطن.
لقد عرفت هذا الرجل ثابت النظرة، صارمها؛ وقلما تطرف عيناه. ولكنه تبسم لي بسمة حلوة، فزالت الصرامة من عينيه، وبقي التحديق. قال:
- هذا لقاء سعيد ايها المواطن؛ فأنا لااكون في بتروغراد غالبا. واخشى اننا لو لم نلتق، لسارت الامور معك سيرا يدعو الى الاسى!
فقلت متلعثما:
- اذن، فانك ترى اني ربما... او يجب ان لااموت؟
- انك لن تموت بالطبع! ومن الغريب ان انسى شخصا يستطيع ان يكون في مثل نفعك لنا!
وعرفت ماذا يقصد. وكنت، في الوقت نفسه، في خوف حقيقي من الموت. وتصورت اقتراب الساعة السادسة، وذلك الموظف ينتظر بورقته، ثم المسيرة القصيرة الى الساحة، فالجدار، فالنهاية.
واخيرا، تكلم دزيرجينسكي:
- ان حكومتنا، حكومة العمال، في خطر عظيم. ولماذا اكتم عنك شيئا!؟ اننا شباب غير مجربين، وقليل بيننا يعرفون ماذا يراد منا. فنحن بحاجة الى اناس من كل نوع، في جميع انحاء روسيا. ونحتاج، كذلك، الى وسائل بسيطة، لنقل افكار بسيطة الى الناس، ولاسيما الفلاحين. ثم امامنا عالم جديد، عظيم، ينبغي بناؤه في جميع انحاء الدنيا، ابتداء بروسيا. وكلما عظمت المهمة، عظم الاعداء. ولدينا من هؤلاء الكثير

في الخارج والداخل. ان جيشنا سوف يتولى امر الاعداء الذين يهاجمون من المقدمة، اما انا، فسوف اتولى امر الاعداء الذين يهاجمون من المؤخرة. وكلما زادت القسوة، قل الوقت الذي نحتاج اليها فيه. وهل لدينا من وسيلة اخرى متاحة لنا؟ هذا العالم الخارجي، يقف ضدنا. فلكل من انكلترا، وامريكا، وفرنسا، واليابان، جيوش فوق اراضينا. وهناك في الداخل، جيوش مناهضة للثورة، تزحف من سيبريا، ومن الدون، ومن آركنجل. وقد ينقلب علينا الفلاحون في اي يوم. كما ان البورجوازيين قد فقدوا الصبر، فهم يعملون لكي ننهار. ازاء ذلك كله، علينا ان ندافع عن انفسنا. ان التردد هو الانتحار بعينه؛ فلقد اعطانا التاريخ هذه الفرصة، ومن الخيانة ان لانغتنمها. اني لست بالرجل القاسي، بل لست بالرجل الصلب؛ ولكن اذا تطلب نجاح الثورة، ان اكون مطرقة، فأنا مطرقة؛ واذا تطلب ان اكون منجلا، فأنا منجل! وهكذا ترى، ايها المواطن، لماذا اريد منك المساعدة. ان العملاء الانكليز ينشطون لتدبير ثورة مضادة؛ وقد كشفنا القناع عن احدى مؤامراتهم؛ وكان لوكهارت، ممثل الحكومة البريطانية، متورطا فيها؛ فألقينا عليه القبض. وفي اثناء ذلك قتل كرومبي، الملحق البحري البريطاني، احد رجالنا، فقتلناه. لقد جئت الى بتروغراد، لفحص الوثائق التي عثرنا عليها في السفارة، ولمتابعة بعض الدلائل. ولكننا نعرف ايضا، ان المنظم الحقيقي لهذه المؤامرة، انما هو رجل يدعى الكابتن ريلي، وهذا مايزل مطلق السراح... فأنا اريد منك، ايها المواطن بلير، ان تساعدني في ذلك - كيف استطيع ان اعثر على هذا الكابتن... الكابتن سدني ريلي؟

وفي الحق، لم يكن هذا الاسم يعني اي شيء بالقياس الي؛ ولم اكن اعلم من امره، ماشتري به حياتي وحريتي. فهززت راسي، وقلت:

- ريلي؟... لاعرف شخصا بهذا الاسم.

- مهلا ايها المواطن... لقد اخبرتك بالوضع الذي نحن فيه، وقد تدرك كم من المهم ان نتعقب هذا الكابتن وزمرته، واحسب ان وقت المغالطة فيما بيننا قد انقضى.

وظل صوت دزير جينسكي ناعما، ولكن اسنانه كانت تظهر في عينيه، كما يقول المثل الروسي. وقلت:

- ولكني اؤكد لك اني لاعرف شيئا عن شخص يقال له ريلي؛ بل اني لم اسمع بهذا الاسم.

- ربما لاتعرفه بهذا الاسم... ان معلوماتنا عنه تقول انه طويل، نحيف، داكن، عسكري المظهر حين يكون الكابتن سيدني ريلي. وهو روسي المولد، واستاذ في التنكر. وهم يقولون انه رجل يظهر كل يوم بمظهر جديد. بيد اني لااصدق هذه

القصص؛ فما هي الا اعتذارات رومانتيكية، من الذين يقعد بهم الغباء عن ان يضعوا ايديهم عليه. ولكن سوف ادركه... فما من جاسوس، مهما كان ماهرا، لايقع في الفخ. اليس كذلك ايها المواطن بلير؟ انك لابد قد سمعت عنه شيئا؟

- اني كنت في السجن، طوال الاشهر الثمانية الاخيرة - اي اني كنت ميتا في مفهوم الخدمة السرية. فليس هناك من ميت كجاسوس وقع في يد عدوه! وانت يجب ان تعرف ذلك فليس لدي مااقوله، ويؤسفني اني قد خيبت ظنك.

قال وهو يخبط المنضدة، بنفاذ صبر:

- انت تعرف البديل الآخر. لقد صدر عليك امر بالاعدام، وسوف ينفذ خلال ساعة.

فلم اجب. فاستطرد يقول:

- اني آسف كذلك. ومادمت قد رفضت مساعدتي، فأنت عدوي. ان عليّ ان اتصرف معك، وفق هذا الاعتبار. واستدعى الموظف ذا الحقيبة الجلدية، فوقعت على امر اعدامي. ثم قضيت الساعة التالية، كصبي يصحو من آلام جلد مبرح.

واقبلوا علي في الوقت المحدد. فحاولت ان اسير ثابتا، معتدلا؛ ولكن رأسي كان يهتز فوق عنقي، على غير هدى؛ وكانت رجلاي مرتخيتين كأنهما منفصلتان عن جسمي. وخرجنا الى الساحة، فأوقفت الى الجدار، امام صف من خمسة جنود، على رأسهم ضابط. ولاحظت عدة لوريات كبيرة، موزعة في انحاء الساحة.

اصدر الضابط امره، فرفع الجنود بنادقهم الى اكتافهم، وشغل احدهم ماكنة احد اللوريات، فانبعث دوي يصم الآذان. وحرت في معرفة علة هذه الضجة، فلعلها لاغراق صوت الاطلاق، او لاغاظة من سيعدم، او لاخماد حساسية فرقة الاعدام.

واقترب مني الضابط ليعصب عيني. فقلت متوسلا:

- كلا... كلا... ارجوك.

- يجب ان تعصب عيناك. انها الانظمة.

فامسك بذراعي ليديرني، فقاومت بشدة، فصفعني على وجهي ثم تطلع الى نافذة عالية على يساره. وتبعت نظرته، فرأيت لدى النافذة دزيرجينسكي ومعه شخص آخر. ولابد ان الضابط قد تلقى منه اشارة بالكف، فقد قال:

- اذن سوف اربط يديك.

- كلا... كلا... ارجوك.

فاستجاب هذه المرة، ولكن بدون صفعة. ولقد كنت عازما على شيء. وهو ان انتظر اللحظة الاخيرة، فأقذف بكل جسمي، وبكل قوتي، على الضابط فأطرحه

ارضا على النحو الذي استطيع . اجل ، انها ستكون رمية يائسة ، بائسة ، لاني سأعود بعدها الى الموت الزؤام ؛ ولكني اكون على الاقل قد سقطت وانا اقاوم . لقد اصبحت في تلك اللحظات الحرجة لااخشى الموت مطلقا . واصبحت تلك المحاولة التي عزمت عليها ، هي كل ماعزي به النفس .

واشتد صوت اللوري ، فتراجع الضابط عن يميني ، ووقف الى الامام قليلا . وصوب الجنود بنادقهم .

ـ واحد . . .

وسمعت الصوت بصعوبة . ومن المؤكد ان الجنود لم يكونوا يسمعوه ، ولكنهم كانوا يراقبون يد الضابط وهي تهبط .

ثم رفع يده ثانية :

ـ اثنين . . .

ثم هبطت فارتفعت اكثر من ذي قبل ، لاصدار الاشارة الاخيرة . فأمسكت بانفاسي ، وشددت كل عضلة في جسمي ، فصاح صوت :

ـ قف !

ولكن فات الاوان . لقد كنت حين صدر هذا الامر من النافذة طائرا في الهواء ، ومنقضا فوق الضابط كالصاعقة . فزاغت عيناه ، ويده لماتزل مرفوعة ! ثم وجدتني اتدحرج فوق الارض ، فيرتطم رأسي بالصخر . ومن فوقي يتدحرج الضابط ، وبعض من كان في الساحة .

هنالك ادركت ادراكا غامضا ، ان دزير جينسكي كان يريد ان يحملني على الكلام ، حتى اللحظة الاخيرة !

وبقي ان نقول للقارىء الكريم ، ان بلير قد اعيد الى السجن ، ثم هرب منه ، ثم اعانته ادارة الاغاثة الامريكية على الخروج من البلاد .

الخائن

لعل القليل من القراء يعلمون ان الكاتب الانكليزي سمرست موم، قد انخرط في سلك الخدمة السرية، في ابان الحرب العالمية الاولى. وقد كتب عن احدى مغامراته في تلك الفترة قصة رائعة، اطلق على بطلها اسم اشندن. واشندن هو موم نفسه. والقصة طويلة بعض الشيء، لذلك سوف اوجزها للقراء:

وصل اشندن الى الفندق الصغير، المتواضع، في وقت يقل فيه النزلاء، حسب التعليمات التي اعطيت له. وارضى فضول صاحبة الفندق، بقوله انه جاء الى لوسرن ليسترد قوته، وانه يعمل في قسم الرقابة، فيريد ان يحسن لغته الالمانية. وسألها ان كانت تستطيع ان تدله على استاذ لهذا الغرض. فأخبرته بأن من بين نزلاء الفندق انكليزي له زوجة المانية، وقد جاء بسبب جنسية زوجته، ليقيم في بلد محايد. وعرف اشندن من وصفها للرجل، انه غرانتلي كيبور، ضالته المنشودة.

وحين دق الجرس معلنا وقت العشاء، اسرع اشندن الى غرفة الطعام، ليسبق سائر النزلاء، فيستعرضهم تباعا وهم يدخلون. واخيرا دخل الشخصان اللذان كان في انتظارهما، فتظاهر بقراءة كتاب بالالمانية، في حين راح يسترق النظر اليهما. كان الرجل في حوالي الخامسة والاربعين، قصير الشعر داكنه، متوسط الطول، عريض الوجه، احمر، حليقا. وكانت زوجته تعطي انطباعا انها امرأة المانية، منزوية، ثقيلة. وبعد ان جلسا انشأ الرجل يحدث زوجته بالانكليزية بصوت مسموع؛ فقاطعته هذه بصوت منخفض، فتوقف كيبور عن الكلام. وشعر اشندن بأن عيني الرجل تتحولان الى ناحيته، وان زوجته قد جذبت انتباهه اليه. وحين اقبلت الخادمة بالحساء، القى كيبور اليها بسؤال، وبدا واضحا انه يستفسر عنه.

وبعد العشاء، خرج اشندن يتمشى، ثم دلف الى حانة. طلب قهوة، واحسن صنف من البراندي، ثم راح يستعرض المعلومات المتوفرة لديه عن طريدته. لقد بدأ هذا حياته في مكتب محام في برمنغهام، ثم تحول الى الصحافة، فعمل لجريدة

انكليزية في القاهرة، ثم لاخرى في شنغهاي. وهنا حاول الحصول على نقود عن طريق النصب، فحكم عليه بالسجن. وبعد ان اطلق سراحه، ضاع اثره مدة سنتين. ثم ظهر في مكتب شحن في مرسيليا، وانتقل من هنا الى هامبرغ، حيث تزوج. ثم انتقل الى لندن، فاشتغل بالتصدير فأفلس، فعاد الى الصحافة. ولما نشبت الحرب، كان يعمل ثانية في تجارة الشحن؛ وكان يعيش مع زوجته الالمانية عيشة هادئة. ثم اخبر مستخدميه بأن وضعه اصبح لايطاق، بسبب جنسية زوجته، فنقلوه بناء على طلبه الى جنوا. وبقي هنا حتى دخلت ايطاليا الحرب. وعلى اثر ذلك، قدم اشعارا، فعبر الحدود الى سويسرا.

كل هذا يدل على انه رجل مشكوك في نزاهته، ذو مزاج غير مستقر، معدوم الماضي والمكانة المالية. ولكن هذه الحقائق ماكانت لتعني احدا، حتى اكتشف ان كيبور، كان منذ بداية الحرب، وربما قبل ذلك، يعمل في خدمة الاستخبارات الالمانية. ثم ارتكب حماقة جعلت من الضروري ان يؤخذ امره مأخذ الجد. فلقد تعرف في زوريخ على شاب اسباني يدعى غوميز، ـ وكان هذا قد انضم مؤخرا الى الخدمة السرية البريطانية ـ واستطاع ان يكسب ثقته، فصرح له الشاب عن حقيقة امره. فما كان من كيبور الا ان اخبر الالمان بما علم، فجعلوا يراقبون الشاب بعد وصوله الى المانيا، حتى ظفروا به وهو يبرد رسالة بالشفرة، فحاكموه، ثم اعدموه رميا بالرصاص.

وكان مما علمه اشندن، ان رئيس الاستخبارات الالمانية، اخذ يزداد ضيقا بخمول كيبور. وقد طلب هذا زيادة اجره، فقيل له ان عليه ان يكسب ذلك بعرق جبينه. ولربما كان الرئيس المذكور، يحث عميله بذلك، على الذهاب الى انكلترا، ليؤدي خدماته من هناك. ففكر اشندن انه اذا استطاع ان يستغل ذلك، فيدفع بصاحبه الى الذهاب الى هناك، فقد افلح في انجاز مهمته.

ولم يطل انتظاره. ففي اليوم التالي كان جالسا في الفندق يحتسي القهوة، ويستسلم لشبه نوم، حين خرج كيبور من غرفة الطعام، فاطلق سراح كلبه، فأقبل هذا وقفز الى اشندن. وصاح كيبور.

ـ فرتزي . . . تعال هنا.

ثم استدار الى اشندن، فقال:

ـ اني جد آسف. ولكنه لطيف للغاية.

ـ أوه! لابأس . . . انه لن يؤذيني.

فنادى كيبور الخادمة، وطلب اليها ان تأتي له بالقهوة، ثم قال مخاطب اشندن:

ـ لقد وصلت منذ وقت قريب، اليس كذلك؟
ـ بلى. لقد جئت امس.
ـ حقا؟ اني لم ارك في غرفة الطعام الليلة الماضية. هل تنوي الاقامة عنا؟
ـ لاادري. لقد كنت مريضا، فجئت الى هنا لأستعيد قواي.
وجاءت الخامة بالقهوة، فوضعتها على مائدة اشندن، فضحك كيبور ضحكة تنم عن بعض الارتباك، ثم قال:
ـ اني لااريد ان افرض نفسي عليك. ولست ادري لماذا وضعت الخامة قهوتي على مائدتك.
ـ اجلس من فضلك.
ـ هذا منتهى اللطف منك. وبالمناسبة، هل انت انكليزي، ام امريكي؟
ـ انكليزي.
قال كيبور برزانة:
ـ لقد تزوجت سيدة المانية.
ـ حقا؟
ـ لااظن ان احدا يستطيع ان يكون اكثر وطنية مني، فأني انكليزي لحما ودما. ولست اجد بأسا في ان اخبرك بأني ارى الامبراطورية البريطانية اعظم اداة للخير وجدت في العالم اطلاقا. ولكن بما ان زوجتي المانية، فمن الطبيعي ان ارى الوجه الآخر للمدالية. ولاتقل لي ان للالمان اخطاء، فاني بصراحة غير مستعد للاقرار بأنهم قد تقمصتهم الشياطين! لقد قضت زوجتي المسكينة وقتا عصيبا في انكلترا، في بداية الحرب. ولست الومها اذا ماشعرت من اجل ذلك بالمرارة. لقد كان كل فرد يظنها جاسوسة. وسوف يضحكك هذا الظن حين تتعرف عليها. انها مثال السيدة الالمانية، التي لاهم لها سوى بيتها وزوجها وطفلنا الوحيد فرتزي!
ثم ربت كيبور على كلبه، فابتسم ابتسامة خفيفة وقال:
ـ اجل يافرتزي... انك طفلنا... اليس كذلك؟!
ثم استطرد يقول:
ـ ومن الطبيعي ان يجعل ذلك الظن وضعي حرجا للغاية. لقد كنت مرتبطا ببعض الصحف الهامة، فلم يكن رؤسائي مرتاحين من هذه الناحية. ورأيت ان خير اتجاه اسير فيه، هو الاستقالة والذهاب الى بلد محايد، حتى تنجلي العاصفة. وانا وزوجتي لانبحث موضوع الحرب اطلاقا؛ وذلك بسببي وليس بسببها، فهي اكثر تسامحا مني بكثير، واعظم رغبة في ان تنظر الى هذا المكروه من وجهة نظري انا.

ـ هذا غريب. فالقاعدة ان النساء اكثر تعصبا وسخطا من الرجال.
ـ ان زوجتي شخصية متميزة جدا، واحب ان اقدمها اليك. لست ادري اذا كنت تعرف اسمي: غرانتلي كيبور.
ـ ان اسمي سمرفيل!

واخبر اشندن صاحبه بأنه يعمل في الرقابة، فلمح في عينيه نية معينة. واخبره كذلك بأنه يبحث عن شخص يعطيه دروسا في المحادثة باللغة الالمانية، ليزداد اتقانا لها، وانه قد سأل ربة الفندق ان كانت تستطيع ان تجد له مثل هذا الاستاذ.

قال كيبور:

ـ ماكنت لارضى باستاذ بناء على نصيحة ربة الفندق. اني سوف اسأل زوجتي عما اذا كانت تعرف احدا. انها سيدة رفيعة الثقافة، وتستطيع ان تركن الى توصيتها.
ـ هذا منتهى اللطف منك.

وسأل كيبور:

ـ احسب انك تعرف قليلا من الالمانية؟
ـ نعم. لقد كنت تلميذا في المانيا. وكنت اتكلم الالمانية بطلاقة. هذا منذ عهد بعيد، بيد اني مازلت اقرؤها براحة تامة.
ـ لقد لاحظت انك كنت تقرأ كتابا بالالمانية، الليلة الماضية.

ياللاحمق! ويالعثرة اللسان! لقد قال منذ قليل انه لم يره امس عند العشاء. فهل شعر بهذه الزلة؟

ونهض كيبور قائلا:

ـ هاهي ذا زوجتي. نحن نمضي صعدا في احد الجبال كل عصر. واستطيع ان اصحبك في جولات ساحرة. ان الازهار رائعة حتى الآن.
ـ اخشى ان علي ان انتظر حتى اقوى قليلا.

وفي المساء كان اشندن يتناول القهوة مع كيبور وزوجته. ولم يصعب عليه ان يلحظ ان موقف الزوجة، لم يكن وديا على الاطلاق. كانت امرأة عادية المظهر، تناهز الاربعين؛ ولكن لم يكن يبدو عليها انها غبية. وقد مال الى الاعتقاد بأن هذه المرأة، الى جانب كونها ربة بيت تتسلق الجبال، قد تكون واسعة المعرفة.

قال كيبور يخاطب زوجته:

ـ اني لم اخبرك ياعزيزتي، أن السيد سمرفيل يبحث عن شخص يعطيه دروسا في المحادثة الالمانية، اثناء اقامته هنا؛ فلعلك تستطيعين ان تقترحي احدا.
ـ كلا، لااعرف احدا استطيع ان اوصي به، وانا مطمئنة. ان اللهجة السويسرية

تشين الكلمات، ولن يعود التحدث بالالمانية مع سويسري الاباالضرر.

وبعد تردد والحاح، تم الاتفاق على ان تتولى السيدة كيبور، اعطاء هذه الدروس.

ومضت الايام، واشندن يدرس هذين الزوجين. وقد توصل الى انه من العبث ان يحاول ارجاع الزوج الى جادة الاخلاص لوطنه، كما قد طلب اليه؛ لان هذا عبر مستعد لخيانة اسياده الالمان، فضلا عن انه لايوثق به، وان تأثير زوجته عليه غاية في القوة. فلم يبق، اذن، سوى ان ينهي امره. ولكن كيف؟ هذا مالم تكن لدى اشندن فكرة عنه.

وبينما هو غارق في هذه الافكار، اذ سمع صوتا يقول:

- ها انت ذا هنا، ونحن نسأل اين اختفيت؟

فاستدار، فرأى كيبور وزوجته مقبلين عليه. قال الزوج:

- هذا خير من ان تكون في انكلترا، مع غارات الحرب ومخاوفها، اليس كذلك؟

- كثيرا.

- بالمناسبة، هل وجدت صعوبة في الخروج؟

- كلا. ليست هناك ادنى صعوبة.

- لقد اخبرت انهم مزعجون عند الحدود، في هذه الايام.

- لقد خرجت بدون اية صعوبة. ومااظن ان اهتمامهم ينصب على المسافرين الانكليز. لقد رأيت فحص الجوازات بالنسبة لهؤلاء مجرد اجراء شكلي.

وتبادل الزوجان نظرة عابرة.

وبعد يومين، اخبرت الزوجة اشندن بان زوجها قد ذهب الى جنيف، لعمل يقوم به هناك.

- أوه، هل يبقى طويلا؟

- كلا، يومين فقط.

وكان لدى اشندن شعور لايعرف مصدره، بأن السيدة كيبور كانت تكذب. وهو يعتقد ان الرجل ربما استدعي الى بيرن، لمواجهة رئيس الخدمة السرية الالمانية. وقد اغتنم اول فرصة، فسأل الخادمة عرضا:

- لقد سمعت ان الهر كيبور قد ذهب الى بيرن.

- نعم. ولكنه سيعود غدا.

وكان اشندن يعرف في لوسرن سويسريا مستعدا لان يقوم بما يكلفه به، فطلب اليه ان يأخذ رسالة الى بيرن، وان يتعقب كيبور هناك ان امكن.

وفي اليوم التالي، ظهر الزوج الى جانب زوجته، على مائدة الطعام. ولكن بدا عليهما انهما قلقان، وفي مأزق.

وتسلم اشندن جواب رسالته. وفيه ان كيبور قد واجه الميجر فون P. وكان بوسعه ان يحزر ماذا قال الميجر لصاحبه، فهو يعرف ان هذا رجل فظ، قاس، ماهر، لايقتصد في الكلام. لقد ضجر الالمان من ان يدفعوا الى كيبور راتبه، وهو يتمشى في لوسرن، دون ان يفعل شيئا. وقد آن الاوان ليذهب الى انكلترا. اجل انه مجرد تكهن، ولكنه كاليقين. فاذا صح هذا، وذهب كيبور الى انكلترا فعلا، فقد تمت مهمته!

والتقى اشندن كيبور جالسا في البهو وحده. فصاح الرجل بتكلف ظاهر:

- هالو... كيف حالك؟ لقد كنت في جنيف!

- لقد سمعت ذلك.

- تفضل، وتناول معي القهوة. ان زوجتي المسكينة تعاني من الصداع، فقلت لها من الخير ان ترقد. وهي في الحقيقة قلقة، لاني افكر في الذهاب الى انكلترا.

فقفز قلب اشندن، ولكن وجهه ظل ساكنا. قال:

- أوه... هل انت ذاهب لمدة طويلة؟ اننا سوف نفتقدك!

- اقول لك الحقيقة. لقد برمت من عدم القيام بشيء. ان الحرب تبدو كأنها سوف تستمر؛ وانا لااستطيع ان اجلس هنا الى مالانهاية. ثم اني لاقبل لي بتحمل النفقات، وعلي ان اكسب رزقي. ان زوجتي المانية، ولكني انكليزي، واريد ان اقوم بنصيبي في خدمة وطني. اني لااستطيع ان اواجه اصدقائي ثانية، اذا مابقيت هنا في دعة وراحة حتى نهاية الحرب.

- هل ستأخذ زوجتك معك؟

- كلا، انها ستبقى هنا.

ففهم اشندن من ذلك، انهما قد اتفقا على ان تبقى الزوجة لتتسلم رسائله، فتبعث بالمعلومات التي تحتويها الى بيرن.

قال كيبور:

- لقد مضت علي مدة طويلة وانا خارج انكلترا. ولااعرف كيف اجد عملا في زمن الحرب. ماذا كنت تفعل انت في مكاني؟

- لاادري. اي نوع من العمل تفكر انت فيه؟

- اني اتصور اني قادر ان افعل العمل الذي تقوم به انت! فهل هناك في ادارة الرقابة، من تستطيع ان تقدمني اليه برسالة؟

فلم يتمالك اشندن نفسه من الانفعال، وضبط نفسه بمعجزة. لقد اشرقت في ذهنه، في هذه اللحظة، الفكرة المدهشة، والترتيب الحكيم، اللذان لم يكن له يد فيهما. لقد حسب انه جالس في لوسرن دون القيام بشيء. ولكن الداهية R في الاستخبارات البريطانية، قد جعله يفعل كل شيء، دون ان يدري. لقد ارسله الى لوسرن، وعلمه كيف يقدم نفسه، وزوده بالمعلومات الضرورية، كل ذلك لكي يقع ماوقع بالفعل! لقد كان امرا رائعا في نظر الاستخبارات الالمانية، ان يكون لها عميل في دائرة الرقابة البريطانية. ومن هو افضل من كيبور لهذه المهمة؟! اما هو، فلم يكن سوى مصيدة نصبها ذلك الاريب R، ليقع فيها P الميجر الالماني العبوس في بيرن.

قال اشندن:

- لقد كنت في احسن علاقة مع رئيسي في دائرة الرقابة؛ واستطيع ان ازودك برسالة اليه، اذا اردت.

- هذا هو ماأريده بالذات!

- ولكني، بالطبع، يجب ان اذكر الحقائق. فعلي ان ابين انني قابلتك هنا، ولست اعرفك اكثر من اسبوعين.

- بالطبع. ولكنك ستقول لصالحي ماسوى هذا، اليس كذلك؟

- أوه، بكل تأكيد.

وفي اليوم التالي، غادر كيبور لوسرن. وظل اشندن يتلقى دروسه وينتظر. وكان كل صباح، يذهب الى مكتب كوك ليتسلم رسائله. وبعد وقت قصير تسلم رسالة من القنصل البريطاني في جنيف، يخبره فيها ان كيبور طلب تأشيرة، ثم توجه الى فرنسا.

وانطلق اشندن في جولة مريحة عند البحيرة. ولدى عودته التقى السيدة كيبور، فسألها:

- هل لديك اخبار عن الهر كيبور.

- كلا. اظن انه من الصعب ان اتوقع رسالة منه الآن.

ولكنها ماكانت لتتسلم منه اية رسالة، حتى فيما بعد!



الجلاد



روت هيلدا يونك المأساة التالية:

كنت مازال اعيش في برلين، وادير مخزنا لبيع الكتب، ودارا صغيرة للنشر بالقرب من اوليفاير بلاتز. وكانت اياما عصيبة، يجوس خلالها جنود العاصفة الشوارع؛ والالمان سكارى بقوتهم، وعهدهم الجديد. وفي سرداب ذلك المخزن، كنت وزوجي بول نشغل مطبعة سرية، اعتقادا منا بأن كراريس الدعاية، تستطيع ان تدمر رشاشات العدو القاسي.

واليوم، بعد السنين العديدة التي مضت، مازلت اتذكر القلق، والاضطراب، والخوف، في تلك الايام. كنا من ساعة الى ساعة، لانعلم متى قد يقبض علينا.

ثم وقعت الكارثة. فقد القى الالمان القبض على واحدة منا، وبعد تعذيب استمر خمسة ايام، حطم جسدها، واتلف كليتها، واشرف بها على الهلاك، انهارت فأعطت عنوان مخزننا. فأقبلوا في الصباح الباكر، في بزاتهم البنية، واحذيتهم العالية، يحملون الرشاشات، للقبض علينا. وكان من قبيل المعجزة ان زوجي قد ذهب الى خارج المدينة. فأخذوني، انا، كرهينة، ثم راحوا يبحثون عن بول اشهرا، فلم يعثروا له على اثر وجعلوني في احدى الزنزانات في سجن موابت. ثم شاركتني الزنزانة فيها بعد سيدتان، المانيتان، ارستقراطيتان، هما بينيتافون برك وشارلوت فون نانتزمر.

وبعد ان قضيت سنة كاملة في تلك الزنزانة، إكتظت جميع السجون بالنزلاء، فاطلقوا سراحي، باعتباري من السجينات التافهات. ولكني، مع فرحي بالحرية، لايمكن ان انسى تينك السيدتين في يوم من الايام.

واعود الى الوراء، فأقول ان هاتين المرأتين قد برزتا في سنة ١٩٣٤ في قضية تجسس، اثارت من الجدل والمشاعر، مالم تثره اية قضية من نوعها. ولكن لم يبق، الآن، سوى القليل من الاحياء الذين عاصروها، فيمكنهم ان يرووا قصتها.

وهذا هو ماحدثتني به هاتان المرأتان في الساعات، والايام، والاسابيع، والاشهر، الطويلة والأليمة، ونحن في السجن:

بدأت القضية برجل، كما تبدأ كل قضية مثلها. والرجل هو الكابتن سيرج سوسنوفسكي ـ ضابط بولوني، من اسرة عريقة. وقد وصفته المرأتان بأنه وسيم للغاية، لطيف الشمائل، فارس حقيقي من فرسان العصور الخالية، تتساقط النساء في احضانه. وكان وطنيا يعبد بولندا، وهي يومئذ ماتزال بلدا حرا. والرجل يتكلم عدة لغات، ولاسيما الالمانية، فهو يتقنها احسن الاتقان. وعلى ذلك، تطوع لخدمة بلاده في الاستخبارات العسكرية البولونية، فأرسلوه الى برلين.

لقد علم البولونيون ان هتلر يكره مايدعوه **Polocken**، وان بولندا لن تبقى سالمة، مادام عند حدودها دكتاتور نازي.

وفي برلين تظاهر الكابتن سوسنوفسكي بأنه رجل اعمال، يمثل عدة شركات، واتخذ له مكتبا يعمل فيه قليل من المستخدمين. وكان العمل الذي ادعاه هو الاستيراد، والتصدير، والبيع. ولم يكن هناك من يخمن، ان هذا المشروع التجاري الصغير، انما هو مركز يصب فيه المعلومات، عدد كبير من الوكلاء السريين، منتشرين في جميع انحاء المانيا، ولاسيما على امتداد الحدود الالمانية ـ البولونية.

وبازدياد قوة هتلر، بدأ رؤساء سوستوفسكي يضغطون عليه، من اجل المزيد والافضل من المعلومات؛ وللقيام باتصالات جديدة، داخل الحكومة النازية. فلقد علمت الاستخبارات البريطانية ان هتلر قد امر باعداد خطة هجوم، لاخضاع بولندا في وقت قصير قياسي. وكانت هذه الاخيرة، تريد ان تعرف تفاصيل هذه الخطة السرية.

ولم يكن من السهل الحصول على مثل هذه التفاصيل؛ فهي مما لايعلمه الا القليل من واضعي الخرائط، والضباط من ذوي الرتب العالية، وكبار رجال الحكومة. بيد ان سوسنوفسكي استطاع في النهاية ان يحصل على نسخة من هذه الخطة، وان كان عن طريق الصدفة، اكثر منه عن طريق التخطيط الفعلي. يضاف الى ذلك، ان هتلر قد استخدم خطة اخرى، عند هجومه على بولندا، في اول ايلول **١٩٣٩**.

وكان الذي اعطى خطة هتلر لغزو بولندا، الى الكابتن الوسيم، هما المرأتان الارستقراطيتان اللتان كانتا معي في زنزانتي. فقد وقعت البارونة بنيتا فون برك في غرام الكابتن البولوني، وراحت تعينه في عمله التجاري، دون ان تعلم حقيقته. وقد سعت في تقديمه للدوائر الالمانية العليا، نازية وارستقراطية؛ وكان من بين ذلك اصدقاء لهرمن كورنغ، وبعض الاميرات العريقات.

ثم تطور الامر بين البارونة والكابتن الى حب عنيف. فانتقلت لتعيش معه في شقته. ولكنه لم يستطع ان يتزوجها، لانها كانت قد هجرت زوجها ولما تحصل منه على الطلاق.

وفي ذات ليلة، كان العشيقان مدعوين الى احدى الحفلات الفخمة، وكان احد مصممي ومهندسي مصنع طائرة Messerschmidt مدعوا ايضا. فاتفق ان سمع الكابتن بعض التفاصيل الجديدة، عن هذه الطائرة المقاتلة. فثبت ماسمع على ورقة صغيرة، ودسها في جيبه دون حذر. وفي الصباح، بينما كان الكابتن مايزال نائما، بحثت بنيتا في جيبه عن نقود لتدفع لبائع الحليب، فوجدت الورقة. وحين استيقظ واجهته بما اكتشفت، فكان دفاعه ضعيفا، اذ قال انه لو لم يلهه هيامه بها في الليلة الماضية، لرمى بالورقة الى حيث لا تستطيع ان تعثر عليها! ثم سألها:

ـ ماذا انت فاعلة؟

ـ سأساعدك. ولكن كم سيطول هذا النوع من العمل؟

فأنبأها بالخطة السرية للهجوم النازي على بولندا؛ وقال ان عليه ان يحصل عليها بأي ثمن. وهنا نضجت فكرة في ذهن بنيتا الذكية. لقد كانت ترغب في ان تتم هذه المهمة بأسرع وقت، لتذهب مع حبيبها الى بولندا، فتشاركه الهناء والامان. ووافقها هو على ذلك. ولكن انى لهما الحصول على الخطة المطلوبة؟

هاهنا ظهرت على المسرح المرأة الثانية ـ شارلوت فون نانتزمر، ابنة عم بنيتا.

كانت شارلوت تعمل سكرتيرة، في وزارة الحرب الالمانية. وكان التقليد السائد لدى المدرسة العسكرية البروسية، انتقاء سكرتيرات الوزارة من بين اسر العسكريين المشهورين. وكان والد شارلوت ضابطا معروفا في الجيش الامبراطوري؛ ثم اتى التضخم المالي على ثروته، فكان على شارلوت ان تعينه في كسب قوت الاسرة، وان تعين، كذلك والدتها التي كانت تعيش في بافاريا، بعد وفاة زوجها.

وذات يوم، دعت بنيتا شارلوت الى بيتها، لتقيم لديها بعض الوقت. وجعلت تخرج معها، وتأخذها الى حيث تذهب؛ فلم تمر اسابيع قليلة، حتى بدأت شارلوت تشعر بشيء من الغيرة. فلقد كانت تكدح لتحصل على القليل، وكانت منزوية في عالم النسيان، بينما هذه ابنة عمها شخصية ساطعة تنعم بالمسكن الجميل، والثياب الفاخرة، والصحبة الرفيعة!

وقرأ الكابتن هذه الغيرة في عينيها، فأدرك ان قد آن الاوان لنصب المصيدة! فاخبرت بنيتا ابنة عمها، ان خطيبها يريد ان يسلم تجهيزات الى الجيش، وان اية معلومات عن عقود الجيش سوف تساعده في هذه العملية. وهو مستعد لان يدفع

بسخاء فضلا عن انه لايوجد شيء غير مشروع فيما يطلبه. وبدا الامر لشارلوت بريئا بالفعل، فوافقت وراحت تقبض خمسمائة مارك عن كل جزء من المعلومات.

وفرحت شارلوت بهذا المورد الجديد، وجعلت ترسل نصفه الى والدتها. وزعمت لها انها صارت تعمل في اوقات اضافية اثناء الليل، فمنحت زيادة وترفيعا.

ولم تكن شارلوت، بالطبع، لتعلم شيئا من اسرار الجيش النازي. ولكنها كانت تستطيع ان تعلم اين ترسل التجهيزات، واين تنشأ المستودعات، واين تكدس المواد الهامة. وكل رجل عسكري، مدرب تدريبا خاصا، يستطيع ان يستشف من هذه المعلومات الخطة والاستراتيجية المحتملتين لغزو بولندا!

ولكن شارلوت بدأ يساورها الخوف؛ وصارت تتردد في تقديم المزيد من المعلومات. بيد ان وقت ذلك قد فات؛ فقد سيطر عليها الكابتن وخطيبته، وجعلا من هذا الامر ابتزازا علنيا. ثم راحا يبعثان في نفسها الطمأنينة، ويبسطان لها المهمة، فلم يعد عليها ان تسرق اية وثيقة؛ بل كل مايطلب اليها هو تقديم نسخة زائدة من اوراق الكاربون التي يمكن ان توضع فيما يطبع من كل رسالة، او تقرير، او مذكرة. فراحت شارلوت تفعل هذا حوالي ثمانية اشهر؛ وهكذا اصبح لبولندا وكيل سري داخل وزارة الحرب النازية!

واستطاعت والدة شارلوت ان تدخر مايكفي لزيارة ابنتها في برلين؛ وقد شاءت ان تكون هذه الزيارة مباغتة؛ ومادرت انها بذلك تنفذ البداية لنهاية المأساة!

وصلت والدة شارلوت الى برلين في شباط ١٩٣٤. وكان الوقت متأخرا حين وصلت الى وزارة الحرب، فوجدت ابنتها قد خرجت. فسألت عن الجنرال فون رايتباين رئيس شارلوت، والصديق القديم للعائلة، فقيل لها انه في مكتبه. وقد فرح هذا كثيرا لرؤية السيدة، ورحب بها ترحيبا فائقا؛ ففقدت السيطرة على نفسها، وانطلق لسانها بالثرثرة. اخبرته بانها سعيدة جدا بهذه الزيارة المباغتة لبرلين، بعد ان توفرت لديها المبالغ الكافية مما تبعث به ابنتها اليها. وراحت تقدم له جزيل الشكر، لانه لم ينس اصدقاءه القدماء، فيسر لابنتها ان تكسب هذه المبالغ الاضافية الكبيرة، التي اتاحت لها ان تدخر، وان تسافر، وان تنتقل الى مسكن افضل!

وبهت الجنرال، وانعقد لسانه. ثم زادته ذهولا حين اضافت ان ابنتها قد اخبرتها كيف عطف عليها، فأتاح لها العمل الاضافي، والاجر الوافي! هنالك ادرك الجنرال ان وراء الاكمة ماوراءها، ولكنه تمالك نفسه حتى ودع السيدة بمثل اللطف الذي استقبلها به. ثم استدعى الاميرال وولتر كانارس، رئيس الخدمة السرية الالمانية، فقص عليه القصة.

ولم تكد تمضى على ذلك ثمان واربعون ساعة، حتى جيء بالمراتين الى الزنزانة التي كنت فيها. وقد قبض، كذلك، على الكابتن سوسنوفسكي، وعلى خمسة وثلاثين آخرين، فجاءوا بهم الى السجن، وكلهم في ملابس السهرة. فكان منظرا غريبا، مثيرا، للسجانين والمسجونين على السواء. ذلك انهم قد قبض عليهم، وهم يحضرون حفلة من ارقى الحفلات في برلين.

وهكذا وضع النازيون ايديهم على هذه الشبكة، وعلى الادلة الكافية، بما في ذلك نسخ الكاربون العائدة لوزارة الحرب.

وكانت المرأتان واثقتين بأن المال سوف يخلى سبيلهما، وبأن البولونيين لن يدخروا وسعا لانقاذهما.

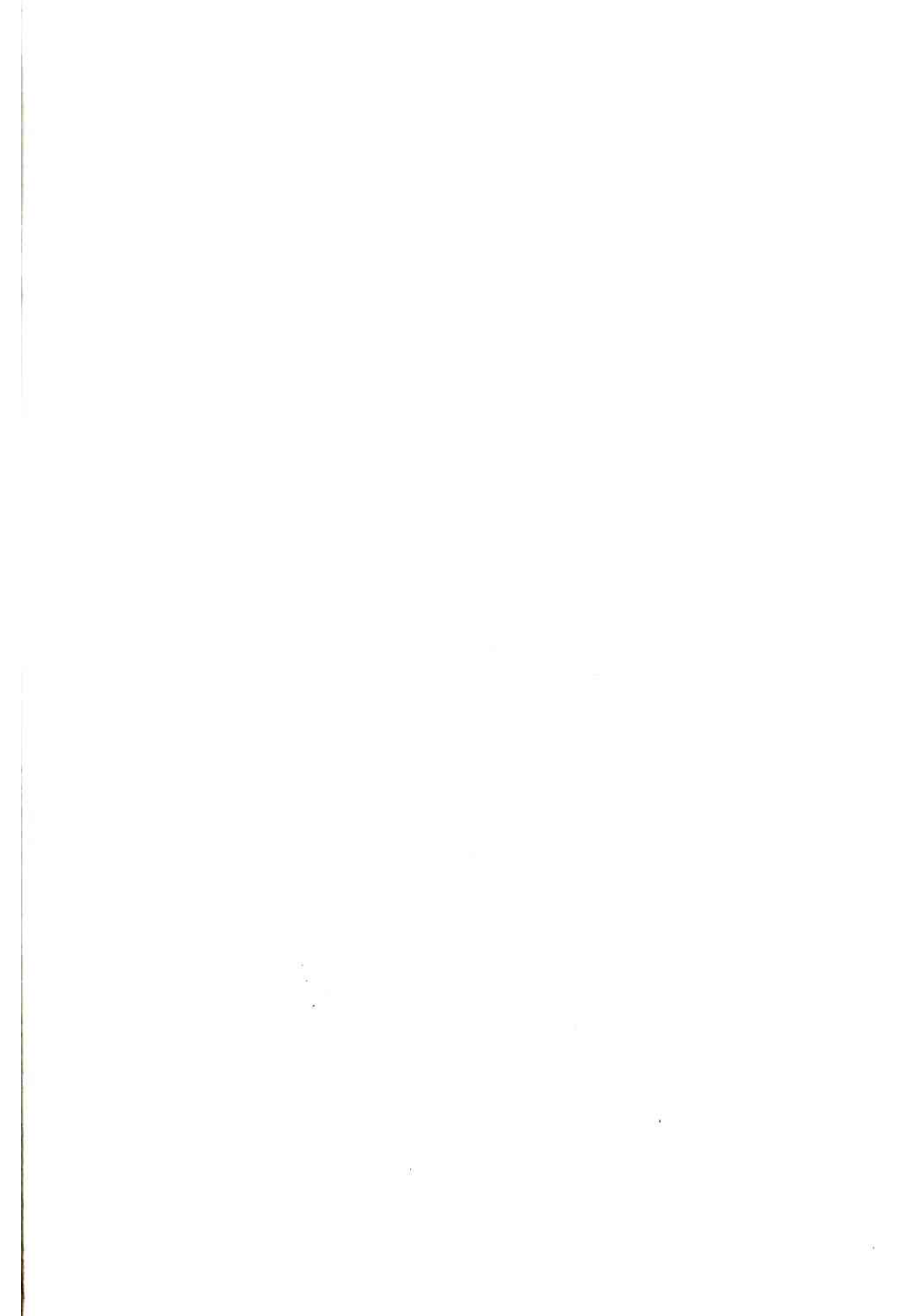
ثم حل اليوم الذي انفصلنا فيه. فقد نقلت المرأتان الى زنزانة الاعدام. وبعد حين طلعت الصحف على العالم بهذا الخبر عن لحظاتها الاخيرة:

كان الجلاد يرتدي ثوب السهرة، والجزء الاسفل من وجهه مغطى بقناع اسود. وقد خانت الآنسة فون نانتزمر اعصابها في اللحظة الاخيرة، فحملها ثلاثة رجال، وهي تقاوم وتصرخ، حتى بلغوا بها كتلة الخشب. فامسكوا بجسمها، ووضعوه الوضع المناسب، حتى اهوى الجلاد بفأسه على عنقها. فاخفقت الضربة الاولى، فأعقبها بثانية، فانفصل الرأس عن الجسد. اما البارونة فون برج فقد تقدمت بهدوء، وركعت عند الخشبة، ثم وضعت صورة حبيبها على الارض لتنظر اليها حتى تموت، ووضعت رأسها بلطف فوق الخشبة، فأزاحت الشعر من عنقها.

وهوت الفأس، فتدحرج الرأس الجميل على الارض، ليستقر الى جوار صورة حبيبها.

اما سوسبنوفسكي، فقد ابعد الى بولندا، لقاء تسليم جاسوسة نازية تدعى السيدة اوزوريل، قبض عليها في بولندا.

وبعد تنفيذ الاعدام، استقال الجلاد ـ وهو قصاب ـ من عمله. واني لاتساءل، الآن، ماذا دار بذهن العاشق الجاسوس؟ فهل أدرك أنه هو الجلاد الحقيقي لهاتين المرأتين؟ ثم هل يستطيع اي امرىء ان ينعم بهدوء البال، وراحة الضمير، بعد مثل هذه المأساة؟ اني اشك في ذلك.



عين هتلر الساهرة



كان من أقوى الرجال، وأوسعهم نفوذا ، في الرايخ الثالث . وكان غير مسؤ ول ازاء احد ، سوى الفوهور نفسه ؛ ومع ذلك ، فلا يعرف اسمه الا القليل ـ ذلكم هو الاميرال ولهلم كانارس ، العقل المدبر لشبكات التجسس الهتلرية ، في الحرب العالمية الثانية .

كان الدكتاتور الالماني ، يحسن اختيار الرجال ، وكان في احسن اختياره ، حين التقط كانارس لهذه المهمة ؛ فليس هناك في المانيا كلها ، من هو اصلح منه لها . فهو بارد الدم ، عظيم الطاقة ، لا سلطان عليه من قلب او ضمير . وقد جعل كل عبقريته التي لا تفتر ، في خدمة سيده . وحين بلغ اوسع نفوذه ، كانت سطوته تمتد الى جميع الاحزاب النازية والفاشستية في الخارج . وكانت فروعه تصل الى ابعد انحاء الارض ، حيثما توجد مصالح المانية . وهو الذي تخير الاسياد «الصنائع» في البلدان التي اظلتها امبراطورية هتلر ، من امثال بونيه ، ولافال ، وكويسلنغ ، وهاشا ، وفرتز كلم ، وغيرهم .

ومن المفارقات الغريبة ، ان هذا الرجل الذي خدم هتلر على هذه الصورة ، قد وجد نفسه فيما بعد في صفوف المعارضة ، وقد كان من بين الذين ساهموا في محاولة اغتيال هتلر ، في العشرين من تموز ١٩٤٤ . وبعد فشل المحاولة ، حوكم ، فأعدم .

كان في سنة ١٩٣٨ ضابطا بحريا ، فلما جاء هتلر رفعه في خلال اشهر قليلة الى رتبة اميرال . وكان يعرف حق المعرفة لماذا يصعد هذا الرجل فوق رؤ وس الاخرين ، ولماذا يعطيه من السلطة ما لم يمتلكه اي زعيم نازي اخر . ذلك ان قصة هذا الاميرال ، مرتبطة اشد الارتباط بتحفز المانيا لحرب الانتقام ، وبتاريخ الخدمة السرية الالمانية ؛ ابتداء من معاهدة فرساي حتى الحرب العالمية الثانية .

لقد سمح الحلفاء لالمانيا بعد دحرها ، بجيش قوامه مائه الف رجل ؛ وتصوروا

انهم بذلك قد دمروا قوتها العسكرية الى الابد . ثم جاء احد اعاظم الاستراتيجيين الالمان ، وهو الجنرال فون سيكت ، فشرع يعيد بناء الجيش الالماني . واستطاع من الاندحار ، ومن العدم ، ان ينشئ احدث جيش في اوربا ؛ بحيث اصبح فيما بعد نموذجاً لجيوش الدول الاخرى .

كان فون سيكت يؤمن بالشرعية على نحو عبقري ! ان معاهدة السلام قد منحت المانيا حق انشاء جيش ، بعدد فيه اقل فائدة ؛ فما كان من سكيت الا ان خلق جيشا كما يشاء ، بملاك مدني مبرقع لوقت السلام ! وقد منع الحلفاء المانيا من انشاء خدمة استخبارات ، فما كان من الجنرال الا ان اسس واحدة باسم اخر !

وقد اطمأن الحلفاء الى ان المانيا لا تستطيع ان تثير حربا بمائة الف رجل ، ثم مضت سنون قبل ان يكتشفوا ان هؤلاء المائة الف ، لم يكونوا يدربون كجنود عاديين ، بل كان كل واحد منهم يتلقى تدريبا وتعليما مشابها لما يتلقاه ضباط الاركان . وهذا هو السبب في اننا لم تكن نجد ، آنئذ ، جيشا على وجه الارض ، فيه مائة الف ضابط ركن ، سوى الجيش الالماني ، وفي اننا كنا نجد في هذا الجيش ، في الخمسينات ، جنرالات في الاربعين من العمر ! وهذه هي هدبة فون سيكت لهتلر .

وفي سنة ١٩٢٠ ، استدعى الجنرال فون سيكت ولهلم كانارس الى وزارة الحرب ، فاعلمه بانه يحتاج الى ضابط استخبارات قدير ، من ضباط الحرب الماضية ، ليعمل في دائرة جديدة ، لا علاقة لها بالقوات المسلحة . وهذه الدائرة الجديدة ، تتطلب غاية السرية ؛ ويجب ان تنشأ بعناية وذكاء ، وان تبقى مهمتها الحقيقية مخفية عن انكلترا وفرنسا . ثم ابلغه ان اختياره قد وقع عليه ، وانه سوف يتسلم راتبه من القوات المسلحة ، ولكن بصفة مستخدم مدني ، ليست له اية علاقة رسمية مع وزارة الحرب . ولهذا فان عليه ان يخفي جميع نشاطه تحت ستار مدني ، وان لا يعترف حتى لو جلب للمحاكمة - بأنه كان يعمل كوكيل سري للجنرال سيكت .

وهكذا اصبح كانارس رئيس «مكتب التحقيق» للقوات المسلحة السوداء ، وهي الجيش السري المؤلف من ثلاثمائة الف جندي ، من الذين نظموا ودربوا تحديا لمعاهدة فرساي ، تحت ستار الخدمة المدنية .

ثم عين الجنرال فون سيكت وزيرا للدفاع . وكان اول ما طلب الى كانارس في العهد الجديد ، ان يتولى تنظيم حرس الحدود ، على جميع التخوم الالمانية . وكانت مهمة هذا الحرس في الظاهر ، تنحصر في الدفاع المدني ؛ ولكنه في الواقع كان يضم

في صفوفه اخطر الجواسيس ، من امثال فلوك هارتنغ ، ومانفرد فون كلنجر ، اللذين كانا يقودان المئات من الضباط المتقاعدين ، وزعماء الفيلق الحر ، و الارهابيين ، والثوريين .

وببساطة متناهية ، حول كانارس هذه الزمرة ، الى منظمة جديدة للتجسس . اما رئيسها المدني فعنوانه «مفوض النظام العام» ، واما وكلاؤ ها فيظهرون في قوائم الرواتب ، كمستخدمين في الخدمة المدنية . وكان كانارس يزور كل مفرزة على حدة ، فيعطي تعليماته الى الوكلاء ، ويزودهم بجوازات مزورة ، ليعبروا الحدود عند الحاجة . وكان من بين تعليماته لهؤلاء ، تعيين احسن النقاط للغزو الالماني ، والعثور على وكلاء ثانويين ، يخبرون المانيا بكل تحصينات جديدة على الحدود في الاقطار المجاورة . وهكذا كان كانارس على علم سابق بكل خطوة لانشاء خط ماجينو الفرنسي .

ولكنه كان يكره ان يكون تابعا ؛ وراوده حلمه العظيم في ان يعود الى الجيش ؛ فطلب الى رئيسه السابق ولتر فون نيكولاي ان يعينه في الحصول على وظيفة رسمية في القوات المسلحة . وكان هذا عظيم النفوذ ، فاقنع سيكت بان يجعل كانارس ضابط ارتباط ، بين القوات المسلحة والقوات السوداء وحرس الحدود . وبما ان كانارس كان في الاصل ضابطا بحريا ، فقد طلب اليه ان يضع الاساس لمكتب الاستخبارات البحرية . وشبكتها التجسسية .

وكانت هذه القوات تتوسع بسرعة ، حتى صار من الضروري تمويلها من مصادر جديدة . وقد تبنى الزعماء لهذا الغرض استراتيجية ساذجة للغاية . كان الجنرال سيكت يزود كانارس ببعض الاموال من ميزانية الجيش ، فيقوم هذا بتوظيفها في شركة سينمائية ضخمة ، هي شركة **Phoebus** ، لقاء ارباح مقدارها ثلاثون في المائة . ثم اجتاح المانيا التضخم المالي ، فأفلست الشركة ، فضاعت ملايين الماركات التي وضفها كانارس فيها . وراح الناس يتساءلون عن المصادر التي حصل منها كانارس على النقود . ثم جرى تحقيق رسمي ، فتبين وجود فضيحة . وحين جرت محاكمة كانارس ، قال للحكام : «اني غير مسموح لي بكشف مصادري . هذه هي اوامر الاركان العامة .»

وطرد كانارس من عمله في الوزارة ، ولكنه استمر يقوم به من منزله ! واقنع كورنغ هتلر بان كانارس ، هو الرجل المؤهل لبناء الجهاز التجسسي للحزب النازي ، فعهد اليه هتلر بهذه المهمة . وقد طلب اليه في بادئ الامر ، ان يجري تحريا عن الاراء السياسية ، والشؤ ون الشخصية ، والحالة المالية ، لجميع ضباط القوات

المسلحة . فانغمس كانارس في التفتيش عن الخونة المحتملين لجمهورية فايمر في الجيش البروسي . وكانت تحرياته فعالة ، ناجحة ؛ فقد كسب الزعماء النازيون ، بواسطتها ، الضباط الموالين ، الواحد تلو الاخر .

وقد جمع كانارس ، بالتعاون مع فون بابن ، الوثائق المصيرية ضد الجنرال شلايشر . وهي تظهر ان هذا كان يقوم بتجارب بولشفية ؛ وذلك باسكان العاطلين في الاراضي الواسعة ، المهملة ، العائدة للنبلاء البروسيين . وقدمت هذه الوثائق الى هندنبرغ ، وكان هؤلاء النبلاء اصدقاء له ، فاستشاط غيظا ؛ وقد عجل ذلك باخراج شلايشر من منصب المستشارية ، وفسح المجال امام هتلر للوصول الى السلطة .

وحين حقق هتلر هذا الحلم ، عهد الى كانارس بالاشراف على الخدمة السرية النازية باسرها . ومنذ هذا الوقت ، صارت سجلات هتلر ، لا تقتصر على معلومات عن الاصدقاء والاعداء ، داخل الجيش الالماني ، بل كذلك اصدقاء واعداء النازية في كل الجيوش ، ومقرات الشرطة ، في انحاء العالم . فقد اغتنم كانارس هذه الفرصة ، ليثبت للفوهرر قدرته على تنظيم شبكة تجسس عالمية ، استعدادا للحرب الكونية القادمة .

واستقر كانارس رئيسا لاحد الاقسام في وزارة الخارجية وكان رئيسه في الظاهر وزيرها ريبنتروب ، ولكن الرجل كان يعمل بارادته على وجه مستقل . وانصرف في البداية الى تهيئة الميدان للعمل الفعلي . وكان في هذه المرحلة حذرا في اختيار رجاله ، فاكتفى بالقليل من الوكلاء ، من ذوي القدرة الاستثنائية . ولم يكن هؤلاء من ذوي اللحى والشوارب ، او العاهات المصطنعة ، او ممن يضعون في افواههم كرات صغيرة لتغيير اصواتهم ، بل كانوا رجالا من ذوي المظهر الانيق ، المتميز ؛ وساسة ودبلوماسيين من ذوي الثقافة ، واللباقة ، والتربية الراقية ؛ فهم يرحب بهم في كل مكان ، ويرغب في صحبتهم كثيرون ؛ بل هم يتمتعون ، احيانا ، بالحصانة الدبوماسية ايضا .

وكانت تعليماته لهؤلاء ، في هذه الفترة ، ألا يفعلوا شيئا سوى ان يفتحوا عيونهم وآذانهم ، فينقلوا اليه ما رأوا وما سمعوا ، ثم يتلقون منه اوامر جديدة ـ لقد كان واجبهم استطلاعا صرفا . ومع ذلك ، فقد كان لهذه الخطة البسيطة من النتائج مالا يصدق احيانا .

وقد عرفنا ان كانارس من رجال البحر ، فهو يدرك اكثر من غيره اهمية السفن للاقتصاد والحرب . وكانت هناك جهات اخرى ، تبني بسرعة محمومة الادوات

الفعالة لتدمير السفن ؛ فما كان عليه ، هو ، الا ان يدل على مواقعها او مجراها ؛ اي متى واين تكون سفن العدو هدفا صالحا للطوربيد ، او اللغم ، او القنبلة ! وقد تبدو هذه المهمة ، في الظاهر ، سهلة ؛ فكل سفينة تخرج من ميناء لتعود الى ميناء . ولكنها ، في الواقع ، بالغة التعقيد ، وان كان ليس بالقياس الى عبقرية كانارس .

وعلى ذلك ، صارت خططه تدور حول هذا المبدأ - كل رجاله يجب ان يقيموا بالقرب من البحار ، ليساعدوا على اتخاذ السبل الكفيلة بتدمير الاسطول البريطاني في بحر الشمال ، والاسطول الروسي في بحر البالطق . واستدعى كانارس زميله في الحرب العالمية الاولى ، فلوك هارتنغ ، الى برلين ؛ فطلب اليه ان يجعل وكيلا المانيا يقيم على بعد كل خمسين ميلا ، على امتداد السواحل الاسكندنافية الطويلة ، وان يوزعهم بشكل ، لا تغيب فيه عن العيون الالمانية اية حقيقة تتعلق بالسفن التجارية لبريطانيا وروسيا وبولندا وغيرها من الدول . لقد كان يريد ان يعرف وصول كل سفينة ومغادرتها ، واسم كل قيطان في البالطق ، وعدد البحارة في كل مركب ، ووجهة كل حمولة ، ومن هو مرسلها والمرسل اليه . وهذه المهمة باهضة التكاليف بالطبع ، ولكن هارتنغ تسلم من صاحبه صكا مفتوحا !

وحين تم تنفيذ هذه الخطة ، كنت تشاهد امرا عجيبا ! فمن هلسنكي حتى هلستكوير ، ومن ايسبجرك حتى رأس الشمال ، زرعت قنصليات ومفوضيات المانية ، على جبهة البحار ! والى جانب هذه ، كان هناك عدد ضخم من الوكلاء الاسكندنافيين المنحدرين من اصل الماني ، قد اتخذوا مساكنهم على البحر مباشرة ، او بالقرب منه !

واروع مثال نموذجي لهذا التوزيع العبقري ، هو مستقر القنصلية الالمانية في مالمو بالسويد - فمن نوافذ هذه القنصلية ، يستطيع المرء بالعين المجردة ، او بمنظار بسيط ، ان يرى كل سفينة تدخل البالطق ، او تخرج منه ! وقد مر وقت غير قصير ، من قبل ان تكتشف السلطات السويدية ، ان القنصل الكسندر بوكس ، ما هو الا احد رجال كانارس ! وحينئذ ، اكتشف بوكس ، بدوره ، ان مناخ السويد لم يعد يلائم كبده ، فغادر البلاد على وجه السرعة !

وكانت هناك بعض البقع المنزوية ، المنعزلة ، على السواحل لا يمكن ان تقام فيها القنصليات او المفوضيات ، ولا أن يسكنها انسان ؛ فلم يعجب كانارس وجود هذه الثغرات فأوعز الى رجاله بأن يرشوا صيادي الاسماك ، الذين يؤمون تلك البقع ، للقيام بتقديم تلك المعلومات . فكان هؤلاء يمدون شباكهم في البحر ، ويتمددون ، هم ، على الساحل ، ليراقبوا ولينتفعوا !

الرجل الخفي



بدأ ضابطا في الاسطول الالماني الامبراطوري ؛ وكان بفطرته ميالا للمؤامرات السياسية ، والخدمات السرية ، لاسيما بعد ان التقى ، في اسبانيا ، ماتا هاري اشهر جاسوسة في عصرها ، فأعجب بها ، واصبح مريدا لها . وفي اوائل سنة ١٩١٩ بدأ امره يشتهر ؛ ففي اثناء الفوضى التي صاحبت الثورة الالمانية ، اقتاد خمسين رجلا مسلحا ، فاحتل احد الفنادق في برلين ، واتخذه مقرا لنشاطه الارهابي . ثم فر من المانيا لكثرة اعدائه ، ومساوئ اعماله ؛ حتى جاء هتلر الى السلطة ، فرد اليه إعتباره، وبارك افعاله !

وبعد جيل من اعماله في قلب المانيا، نجده في هذه المرة، يجوس خلال الدول الاسكندنافية، تابعا امينا للأميرال كانارس، سيد الخدمة السرية الألمانية. كان الاثنان يهيئان الجو ويتآمران لغزو الشمال. ومما لامرية فيه، ان نجاح غزو الداينمارك، انما يعود الى درجة كبيرة، الى مهارة هذا الرجل، وسعة حيلته - ذلكم هو هورست فون فلوك هارتنك.

في سنة ١٩٣٩ ، ثارت في الدينمارك ضجة حول النشاط المريب الذي كان هارتنك يزاوله هناك. ولكن لم يتخذ ضده اي اجراء ، لان وكلاءه في الشرطة الداينماركية ، قدموا بالنيابة عنه صفحة ناصعة البياض ، جاء فيها ان هارتنك لم يفعل شيئا سوى ما يفعله المراسل الصحفي النموذجي !

ومع ذلك، لم تنته متاعبه. ذلك أن الحزب الديمقراطي الاشتراكي الدانيماركي، كان يمتلك وثائق تثبت أن هارتنك قد اشترى، بواسطة أصدقائه من الدانيماركيين، مزارع بالقرب من الحدود الألمانية - الدانيماركية. ثم ملأها بجنود ألمان، يرتدون ملابس الفلاحين، ويقومون بكل ما يطلبه اليهم ! بل ان الحزب المذكور، وضع يده على وثائق أخرى أخطر من ذلك - فلقد قام هارتنك بتسجيل الأربعة آلاف ألماني، المقيمين في كوبنهاكن، وجميع الألمان والنازيين الدانيماركيين، المقيمين في الأقاليم.

وشفع ذلك بأن وزع عليهم ورقة أسئلة، لجمع معلومات مفيدة، تستخدم في وقت الغزو. وهذه هي بعض تلك الأسئلة: هل تسكن بالقرب من البحر ؟ هل تسكن بالقرب من مطار ؟ هل تسكن بالقرب من سكة حديد، أو مصنع غاز، أو كهرباء، أو بناية حكومية ؟ فإن كان كذلك، فأين المكان ؟ هل تمتلك سيارة، أو زورقا بخاريا، أو قاربا، أو دراجة عادية أو بمحرك، أو سيارة حمل، أو وسائط أخرى للنقل ؟ فان كان كذلك، فهل أنت مستعد لوضع هذه الوسائط تحت تصرف المفوضية الألمانية ؟ هل تعرف أي شخص من رجال الحكومة ؟ هل لديك أية معلومات عن المصانع ووسائل الاتصال الدانيماركية ؟ أو هل تعرف أشخاصا لديهم مثل هذه المعلومات ؟

وضع الحزب المذكور يده على هذا كله، فدفع به الى الصحافة؛ فأحدث نشره دويا هائلا، وثار الرأي العام في الداخل والخارج؛ وانتقلت القضية الى البرلمان، فاستعد النواب لرشق الحكومة بوابل من الاستجوابات تزعزع مركزها، وتهدد مصيرها. هنالك ادلت المفوضية الالمانية بدلوها، فقالت انها كانت تريد استعارة السيارات، والقوارب، ليستخدمها السواح الألمان في نزهاتهم الصيفية؛ وان الاسئلة الاخرى انما قصد بها تحسين العلاقات التجارية بين المانيا والدينمارك !

ولم تعط المفوضية الالمانية التفسير الاخير عبثا؛ فقد صادف هوى لدى حزب الفلاحين المحافظ، شبه النازي. ذلك ان اعضاء هذا الحزب، كانوا يعتمدون الى درجة كبيرة، على التصدير الى المانيا؛ لان انكلترا وغيرها من الاقطار، فرضتْ تعريفات عالية على استيراد المواد الغذائية.

ولكن الهياج الذي احدثه نشر تلك الوثائق، اقلق هارتنك اشد القلق؛ فاراد ان يكتشف مقدار ما يعلمه الحزب الديمقراطي الاشتراكي الداينماركي عنه، وعن علاقاته برجال الشرطة. فعقد اجتماعا مع عميله كارلس هانشن، فوعده هذا بالحصول على اشخاص من حزب الدكتور كلاوس النازي، ليقوموا بهذه المهمة؛ وقال له انه سيقوم شخصيا، بتنظيم هذا السطو.

كان رئيس الحزب، هانس هيد توفت هانسن، هو الخلف المحتمل لرئيس الوزراء الداينماركي ستاوننك. وهو رجل مستقيم السيرة، خال من الاسرار الخطيرة، فلم يكن ليقع في روعه ان احدا ما سوف يتجرأ على اقتحام مكتبه. لذلك ترك ادراجه مفتوحة، واضابيره تحت متناول اليد. وفي ساعة متأخرة من الليل، اقبل على مقر الحزب خمسة من رجال الدكتور كلاوسن؛ وكان المفتش يتيسن وهو صديق للمتآمرين، يتولى قيادة الشرطة في تلك الليلة، وهذا معناه ان كل شيء على

ما يرام . ووجد الرجال الخمسة البناية بدون حماية ، فدخلوها بمفاتيح مصطنعة ، واخذوا كل ما يشتهون من الوقت لانجاز مهمتهم .

وعلى الرغم من ان هؤلاء النازيين الخمسة ، كانوا من امهر اللصوص ، الا ان الامر قد غم عليهم ، فلم يعرفوا ماذا يأخذون وماذا يدعون . فهدتهم حكمتهم الى ان ينهبوا اكبر مقدار يستطيعون حمله ، وان يتركوا لمن يهمه الأمر أن يتخير منها ما يشاء . ولكنهم لم ينسوا انفسهم ؛ لقد رأوا نقودا في بعض الادراج ، فاختفت في الحال ؛ وراوا كتبا ، وصورا ، ولافتات ، فمزقوها اربا اربا ، انعاشا لروح الانتقام التي يتحلون بها !

وكان سرور هارتنك بغنائم هذه الزيارة الليلية عظيما فلقد كانت تلك الوثائق المسروقة ، مثيرة نوعا ما ، على الرغم من انه لم يجد فيها الكثير مما يتعلق به . ولكنه وجد فيها ان الحزب الديمقراطي الاشتراكي الدانيماركي كان يضع الخطط لتحصين الحدود الدانيماركية ـ الالمانية ؛ وانه قد وزع عددا كبيرا من الالغام الارضية على امتدادها . ووجد مراسلات مع الديمقراطيين الاشتراكيين في آيسلنده ، يحذر فيها هؤلاء من أن النازيين كانوا ينشئون محطات اذاعة سرية فوق جزيرتهم وعثر على نسخ من رسائل موجهة الى نواب برلمانيين ، سويديين ونرويجيين ، تظهر ان هناك حركة قوية ، لتكوين اتحاد بين الدول الاسكندنافية ضد النازيين .

وفي اليوم التالي ، كانت الصحف الداينماركية تقيم الدنيا وتعقدها حول هذه السرقة ، ولكن هارتنك كان قد سبقها في ايصال تلك الوثائق الى كانارس ، ثم طار وراءها الى برلين ، فعقد مع صاحبه جلسة سرية .

وكان كانارس فرحا ، مرحا ، يضحك من كل قلبه . وقد ابدى اعجابه بكفاءة الوكلاء في الداينمارك ، واشار بتهكم الى ان الحزب الديمقراطي الاشتراكي الداينماركي ، قد يواجه بعض الصعوبات اذا كان قد فقد جميع مراسلاته . اما هارتنك ، فلم يكن في مزاج يسمح له بالضحك ، وقال لصاحبه ان ايامه في الداينمارك اصبحت معدودة ؛ لان الكثيرين صاروا يشكون فيه ، ولن تقدر الشرطة على حمايته الى مالا نهاية .

فقهقة كانارس بكل انشراح ، وقال :

ـ لقد اخذت تتقدم في السن يا هورست .

ـ ولكن ليس في نيتي أن افتش داخل السجون الداينماركية !

قال كانارس محاولا ان يطمئنه .

ـ اذن ، عليك ان تبقى في الداينمارك حتى ندخلها . اما اذا قبض عليك او على

رجالك قبل ذلك ، فالامر سهل ، اذ نستطيع ، حينئذ ، ان نقدم انذارا نهائيا لاطلاق سراحكم ! ثم اضاف :

- كل شي جاهز ؛ ولم يبق سوى تحديد اليوم .

وكان هذا الكلام في اوائل سنة ١٩٣٩ . ثم أوصى كانارس بان يهتم هارتنك ، من الان فصاعدا ، بمراقبة السواحل ، ونشر العيون على امتدادها . ذلك ان الحرب في اسكندنافيا معناها المواجهة البحرية مع انكليرا . ثم قدم الى تابعه الامين صليب الاستحقاق من الدرجة الاولى ؛ وعاد هارتنك الى الدانيمارك بموارد ومهام جديدة !

ولكنه ما كاد يصل ، حتى وجد بعض وكلائه وراء القضبان ؛ ومن بينهم بلغنك اهم تابع له في دوائر الشرطة ، فصار ينتظر دوره كل يوم . وفي هذا الوقت ، قدمت الحكومة البريطانية احتجاجا شديد اللهجة الى الحكومة الدانيماركية ، حول شبكة التجسس التي يديرها هارتنك ؛ وهددت بأنها سوف تتخذ الاجراءات لتضمن ان الجواسيس لن يعودوا يسرحون فوق السواحل الدانيماركية واصيبت الحكومة الدانيماركية بصدمة شديدة ، حين علمت بغتة ، ان هارتنك قد استخدم مائتي وكيل سري في انحاء البلاد ، وقد زرع الساحل الدانيماركي بالجواسيس الالمان !

ولكن هارتنك كان يعمل بقلب من حديد ؛ بل صار ، الان ، يلجأ الى اساليب لم تكن تتفق مع روح العصر ، فهي اقرب الى الروايات الخيالية منها الى الخطط الواقعية . ومن ذلك ، انه كان يعرف شابا وسيما ، قديرا ، ولد عند الحدود الالمانية - الدينماركية . وكان هذا عاطلا ، فوضع هارتنك يده عليه ، فأرسله الى برلين ليتلقى بعض التدريب . وعاد هذا الشاب ، واسمه كروبر ، وهو مجهز للخدمة . هنالك كلفه هارتنك بمهمة بسيطة ، هي ان يقضي فترة من الزمن في منتجع السباحة الشهير ، في جزيرة بورنهولم . وكل ما عليه ان يفعله هو جمع اكبر مقدار ممكن من المعلومات عن الجزيرة وسكانها .

وبعد ان قضى كروبر مدة قصيرة في الجزيرة ، استدعاه هارتنك ، فجرى بينهما الحوار التالي :

- هل عرفت اين تقع فيللا الاميرال تويرك ؟

- نعم في الجانب الشرقي من الجزيرة ؛ وفيها حديقة واسعة ؛ وهي قريبة من البحر .

- هل تستطيع ان تقود سيارة ؟

- كلا ، يا سيدي .

- يا الهي ! لقد كان على الحمقى في برلين ان يعلموك ذلك وتركه اسبوعين ، على ان

لا يفعل شيئا سوى تعلم قيادة السيارة ثم استدعاه ثانية ، فقال له :
- ان آل تويرك ، لديهم في الوقت الحاضر سائق . ولكن هذا السائق سوف يمرض ، او سوف يقع له حادث سيارة ؛ وحين تبحث السيدة تويرك عن سائق جديد ، عليك ان تقدم طلبا لتولي هذه المهمة هل فهمت ؟!
- نعم . يا سيدي .

واستأنف كروير تسكعه في الجزيرة . وبعد اسبوعين ، ظهر اعلان في الصحيفة المحلية ، يذكر ان سائق السيدة تويرك قد دهسته سيارة شحن ، فهي تريد سائقا جديدا يحل محله ! فقدم كروير طلبه ، واعجبت السيدة تويرك بهذا الشاب ، الجميل ، الانيق ، الذي لفحته الشمس . وقد قال لها انه صائد أسماك ، ولكنه يجب ان يغير حرفته ؛ ثم انه يستطيع ان يقوم باعمال اخرى مختلفة ، كمساعد لها . وسألته :
- كم مضى عليك ، وانت تعمل في البحر ؟
- ثلاث سنوات .
- حسنا . انك ستشعر هنا وكأنك في بيتك . ان زوجي هو الاميرال تويرك .

ومضى شهران ، وكروير يعمل بكفاءة ونشاط لارضاء سيده الاصلي ، وسيدته الجديدة . فقد كسب الى جانب النازيين العشرات من حراس الفنارات ، والصيادين ، وعمال الارصفة ، كما انه اثبت للسيدة تويرك ، انك مؤهل للقيام باعمال اخرى ارفع من قيادة السيارة ؛ فطلبت اليه ان يكون سكرتيرها الخاص ، لاسيما بعد ان علمت انه يحسن الطبع على الالة الكاتبة .

ثم صار يكتب الرسائل للاميرال نفسه . فصارت برلين تعرف كل شي هام يجري في الاركان البحرية الداينماركية ! ومن ذلك ، ان الاميرال تويرك ، كان نشيطا في ايجاد تعاون بين الدول الاسكندنافية ، ضد اي اعتداء خارجي ؛ وعن طريق المراسلات المتعلقة بهذا التعاون ، استطاع كروير ان يجمع معلومات اضافية عن النرويج والسويد .

وجزيرة بورنهولم ، تقع بالقرب من الجزيرة الالمانية روكن . ومن هذه الاخيرة ، كان كروير يستقبل زوارا في كثير من الاحيان وهؤلاء الزوار هم ضباط في الاستخبارات البحرية الالمان ، ولكن كروير كان يقول للاميرال ، انهم اصدقاء قدماء من ايام الصيد ! وكان غرضهم من هذه الزيارات ، تحري مواقع الانزال ، والفنارات ، وغير ذلك من المعلومات التي تهمهم . وكان كروير ، بدوره ، يحصل باستمرار على نسخ من قوائم الركاب على السفن والطائرات ، ثم يرسل ذلك الى

هارتنك ، فيتولى هذا ايصالها الى الاستخبارات الالمانية عن طريق مرسلة خاصة في جزيرة روكن .

وهكذا اصبحت الشرطة والبحرية الداينماركية في قبضة هارتنك . ولكنه لم يقنع بذلك ، بل كان يتطلع الى وكلاء داخل الجيش الداينماركي .

وقد استطاع ، فعلا ، ان يشتري ضابطين شابين ، هما الكابتن نلس كارد ، والكابتن وندنك كرستنسن . ومع ان الاستخبارات البريطانية ، كانت تعرف شيئا غير قليل عن نشاط هارتنك ، وكانت تزود وزارة الدفاع الداينماركية بالكثير من المعلومات ؛ الا انها كانت تجهل امر هذين الضابطين . بيد ان امرهما قد انكشف بعد حين . فقد اعلن النائب الشيوعي اسكن لارسن في البرلمان ، ان الضابطين الخائنين سبق ان ذهبا الى كيل ، وهناك قد تفاوضا مع رجال البحرية الالمانية ، فطلبوا منهما ان يقوما بترتيب انزال الماني في جزيرة **Fuenew** بدون مقاومة . وكان الالمان يعتزمون انشاء قاعدة بحرية للغواصات ، فوق هذه الجزيرة .

وبعد اسبوع من هذا الاعلان ، طرد الضابطان من الجيش الداينماركي ، فالتحقا بالجيش الالماني ! وراحت الصحف ، والاذاعة ، والبرلمان ، تخوض في هذه القضية ، دون ان تذكر اسم فلوك هارتنك !

ولكنه حين قبض عليه فيما بعد ، اعترف بان هذين الضابطين كانا من عملائه !

رجل الغموض

هذا رجل خلق للغموض. فالغموض هو الدور الرئيس الذي يلعبه في الحياة، او على الاقل هو الدور الذي لعبه في الحرب العالمية الماضية. وكل الذي نعرفه عنه، انه قد انضم الى قوات الحرس في اسكتلندة، بعد ان اعطى لضابط التجنيد عمرا كاذبا؛ فأنتهى ذلك بأن اصبح نزيل السجن العسكري مدة تسعين يوما، ثم طرد من الجيش. فألقى بنفسه وسط الطغمة الفاسدة في «الويست أند»، فغرق في الجريمة حتى صارت الشرطة تجري في اثره. ولما ضاقت في وجهه السبل، هرب الى جزر القنال، فقبض عليه في جزيرة جرسي، واودع السجن.

ثم اقبل الالمان على هذه الجزيرة، ولسنا ندري ماذا صنع لهم هذا الانكليزي، وهو في السجن، حتى صاروا يعشقونه! فلقد ارسلوه الى فرنسا، ثم الى المانيا، ليتلقى تدريبا خاصا على الخدمة السرية. وبعد ان اتم ذلك، راحوا يكلفونه بمهام مختلفة، هنا وهناك، فنجح فيها نجاحا عظيما، وسر به النازيون غاية السرور.

هذا نصف القصة المتعلقة بايدي جابمان. اما النصف الآخر، فأهم مافيه الحادثتان التاليتان: في التاسع والعشرين من مارت ١٩٤٦، القى عليه القبض بموجب قانون الاسرار الرسمية، فحكم عليه بالغرامة. وفي سنة ١٩٤٨، القي عليه القبض ثانية لتهمة تتعلق بالعملة؛ والغريب انه حين مثل امام الحاكم، شهد له ضابط كبير في وزارة الحرب البريطانية، فوصفه بأنه «من اشجع الذين خدموا في الحرب الاخيرة!».

ولنستمع الى مايقوله هو عن نفسه، فهل سيلقي ذلك بعض الضوء على لغزه؟ هيهات... فهو حتى حين يفتح فمه، يتحدث عن الآخرين، اكثر مما يتحدث عن نفسه!

يقول ايدي جابمان: رتز مطعم عصري، فخم، في اوسلو. وهو كغيره من الاماكن العامة في تلك المدينة، تؤمه صفوف طويلة، من الضباط والجنود الالمان.

وهو، ايضا، ملتقى للنرويجيين من كتيبة الفايكنك - رجال كويسلنك الذين يستخدمهم هتلر في الجبهة الشرقية، ويسمح له بالانضمام الى قوات الـ S.S. المتميزة؛ فهم يتمتعون بمكانة سامية في نفوس الالمان.

كان الطعام رديئا، رتيبا، لذلك انصرفت الى صاحبي جوني هولست، وهو يحدثني عن الاوضاع الحقيقية في النرويج. لقد كان هذا البلد، دائما، من اصعب الاقطار من ناحية السيطرة عليه. وقد لمست بنفسي، مقدار مايكنه اغلب النرويجيين من الضغينة للالمان. فهناك صدع عميق، يفصل بين الشعب النرويجي، وسادته الغرباء. والنرويجي، اما ان يكون من جماعة كويسلنك النازية، وهم قلة ضئيلة، واما من الميالين الى الحلفاء، وهم كثرة عظيمة. وليس هناك بين هاتين الطائفتين فئة محايدة. وكان الشعب، بمختلف طبقاته ومشاربه، يكاد يتحدى الالمان جهارا. فهو يرفض باحتقار كل نوع للتعاون، بل حتى المجاملة. وهو يوزع كراريس المعارضة، وينظم الاحتجاجات، ويقوم بالاضرابات، ويرتكب التخريب، والاختطاف، واحيانا القتل!

ولو قدر لك ان تكون المانيا اوشبه الماني، وان تقيم في النرويج، في تلك الفترة، لانتابك شعور جد بغيض. فحيثما تذهب، يعترضك جدار ضخم من الحقد. فالنرويجيون شجعان، ووطنيون، وقد ظلوا يكافحون ضد الاحتلال، ولم يتضعضع ايمانهم بأنهم سوف يعودون احرارا في النهاية. وحين كان النازيون يعدمون زعماءهم، والرهائن المأخوذة منهم؛ او يعذبونهم في معسكرات الاعتقال؛ فانهم كانوا يتحملون هذا كله على طريقة الرواقيين، الذين يرفضون الاهتمام بالافراح والاتراح، ويرضون بنصيبهم في الحياة. بل ان الاهوال التي كانوا يلقونها، كانت هي التي توحدهم في مقاومة صلدة للغازين. ومن هنا، جعل الالمان يخشون النرويجيين ويحترمونهم. ففي الصفوف الطويلة، امام دور السينما والمسارح، كان الالمان يقفون بصبر، ولايتخطون احدا؛ وهذا قلما يفعلونه في البلدان المحتلة الاخرى. وفي المطاعم، كان النرويجي يحرص على الجلوس قبالة الجندي الالماني، لينظر اليه بازدراء! وفي القطر والحافلات، كان يترك له مكانا فسيحا، ليشعره بأنه ينبذه.

واخبرني فون كرونن ان وولترماس، الذي عمل معنا في باريس، سوف يصل عما قريب. فاستقبلناه في اليوم المحدد. وقد وصل في قطار لنقل الجنود، وهو يرتدي بدلة الميدان، ويحمل على كتفه علامة ضابط طيار. كان متعبا، رث الهيئة؛ وقد شكا بمرارة من التأخير؛ اذ قطع المسافة عن طريق السويد، في ثلاثة ايام.

وعلى مائدة الغداء، اخبرني فون كرونن وولتر توماس، ان برلين تريد ان تسجل

اعمالي في انكلترا على الآلة الكاتبة كرة اخرى، ثم ترسل اليها. ولقد ادركت من قبل السبب الذي يحملهم على هذا التكرار؛ وهو انني اذا اعدت قصتي اكثر من مرة، فقد اناقض نفسي. لقد كانت الخدمة السرية الالمانية تؤمن بنظرية مؤداها ان المرء يستطيع، دائما، ان يتذكر الحقيقة، ولكنه ينسى الاكاذيب!

ولم يكن القادم الجديد، وولتر توماس، مسرورا بقدومه الى النرويج. فلقد كان قبل مجيئه، يختلف الى دورة خاصة للضباط، استعدادا للعمل في الجبهة الشرقية؛ فساءه ان يقطع تلك الدورة لكي ينضم الينا هنا. كان الرجل مبتلى بعقدة العظمة، مملوءا بالافكار النازية؛ وهو يقرأ بنهم قصص ابطال الحرب الالمان، فاذا قرأ في الصحف تكريم احد هؤلاء، قرن نفسه به، لاسيما اذا كان يعرفه؛ ثم يقبل عليّ والصحيفة بيده، فيقول:

- انظر، هذا هو الكابتن ماكلن، وقد منح الصليب الحديدي. لقد كنت زميله في المدرسة. ولو انني، الآن، معه، فلربما كنت امنح واحدا مثله!

وكنت، احيانا، اغيظه بمثل هذا الجواب:

- نعم. ولكن من المحتمل، كذلك، انك كنت الآن جثة جامدة فوق الثلوج، في مجاهل روسيا!

فيرد علي بعبوس:

- خير لي ان اموت مكافحا عن مثلي العليا، بدلا من ان ازاول هنا هذا العمل اللعين!

كان العشرون من نيسان يوم ميلاد هتلر؛ فقام الالمان باستعراض عظيم في شوارع اوسلو، ليبهروا النرويجيين بعظمة قواتهم المسلحة. وقد تفرجت، انا وتوماس، على الاستعراض من موقع رائع. اقبل الموكب من بوابة كارل جوهانسي مارا، متجها نحو دار منسغاين. وكان هناك جمهور اكثرهم من الالمان، وقفوا وراء صف من حرس الشرطة السرية على جانبي الشارع، على بعد ثلاث خطوات بين الواحد والآخر.

اقبل اولا المشاة، ثم حوالي مائة دبابة، ثم مسلحون فوق الدراجات، ثم مفرزة من رجال البحرية. وكانت فرقة الموسيقى تلعب اغنية «نحن سائرون الى انكلترا». وكانوا يمشون مشية الاوزة، فيتعالى الهتاف من رفاقهم المشاهدين.

وكان القائد النازي فون تربوفن، واقفا قبالة الجامعة يتلقى التحية. وقد استمر الاستعراض ساعة كاملة، فترك بالتأكيد انطباعا حسنا لدى الاصدقاء الموالين. اما النرويجيون، فأمرهم مختلف بالطبع. وقد لاحظت ان القلة الحاضرة منهم، كانوا يشهدون الاستعراض وهم يقلصون شفافهم، لاسيما حين مرت المدافع الضخمة؛

فكان لسان حالهم يقول: مع ذلك، لن تكسبوا الحرب!

وحين انتهى الاستعراض، كانت عينا توماس ماتز الآن تلمعان فخرا واعجابا. وسرنا حتى بلغنا الكراندكافية. وكان الى جانبها نافذة للعرض، يضع فيها النازيون مادة دعايتهم ضد الحلفاء. كانت هذه الدعاية تتخذ في الغالب شكل صورة هزلية ضخمة. وفي ذلك اليوم، ظهر في الصورة جرجل وروزفلت كطائرتين مريعتين، تلقيان القنابل فوق الكنائس والمستشفيات الالمانية، بينما راحت النساء البريطانيات يمرحن، ويعبثن ويشربن الكوكتيل! وفي رأيي ان مثل هذا الكارتون كان يضر الالمان اكثر مما ينفعهم.

كانت الايام القليلة، التالية، حافلة بالعمل. وقد شغل توماس بتقريره عني، فلما تم بشكل ارتضاه، طار به فون كرونن الى برلين. وبعد خمسة ايام عاد فطلب الي ان اوافيه في شقته. وكان عظيم الانشراح، وقال وهو يشع سرورا:

- فرتز... لقد قرروا ان يمنحوك مائة وخمسين الف مارك، مائة الف من اجل تخريب مصنع الطائرات، وخمسين الف من اجل تفجير السفينة، والمعلومات التي ارسلتها.

وارتحت لهذا الخبر؛ ولكني تظاهرت بالخيبة. وقلت شاكيا:

- هذا غير كاف. لقد وعدوني بمائتي الف مارك.

- اني آسف يافرتز. ولسوء الحظ، لم اكن انا هو الذي وعدك بهذا المبلغ؛ ولم يكن من صلاحية الدكتور براون ان يعدك به. ومع ذلك، فلاتنس ان ماعطيت هو مبلغ كبير. وفي المستقبل قد تكون لديك الفرص لكسب المزيد؛ ولم لا؟ فانك اذا لعبت بأوراقك على الوجه السليم، فقد ينتهي بك الامر الى ان تكسب مليون مارك!

وكان من مقتضى تسليم هذا المبلغ، ان يودع لدى فون كرونن، فأستطيع ان اسحب عليه اي مقدار احتاج اليه، وبعملة القطر الذي اكون فيه.

ثم وقع ماهو غير منتظر. نهض فون كرونن واقفا وراء مكتبه برزانة وقال:

- فرتز... والآن هذه هدية قررت انا ان اهديك اياها. لقد ارسلت الينا لتمنح لمن ابدى حماسا عظيما، ونال نجاحا كبيرا، خلال هذه السنة. وبعد التشاور مع الرؤساء هنا، وقع الاختيار عليك! وناولني علبة صغيرة. فتحتها فاذا بداخلها الصليب الحديدي! وقد صُعقت، وكدت انفجر ضاحكا! فأي مفارقة هذه؟! بريطاني... والصليب الحديدي! ولكني ضبطت مشاعري بسرعة، وقلت في نفسي:

- ليس في هذا ضير يافرتز. انك، الآن، تملك مائة وخمسين الف مارك الماني، والصليب الحديدي. واذا بقيت مع هذه الزمرة، الوقت الكافي، فليس من المستبعد ان تتخذ طريقك الى الماريشالية!

هذا كل ماباح به ايدي جابمان ، ولعله كان جاسوسا مزدوجا . ولكن الذي لامرية فيه ، انه كان البريطاني الوحيد الذي يحمل الصليب الحديدي .

نضال امرأة

ولست احدثك عن نضال امرأة عربية، لان هذا قد امتلأت به بطون الكتب؛ ولااحدثك عن نضال امرأة اوربية، فأن مثل هذا النضال معروف لدى الكثير من الناس، وما اظن ان احدا من المثقفين يجهل جاندارك او اديث كافيل مثلا؛ ولكني احدثك عن نضال امرأة من بلد صغير في الشرق الاقصى، ابلت في الحرب العالمية الماضية بلاء حسنا. ومع ذلك قد لايعرفها الا القليل.

اسمها سيبل كاثيكاسو، وهي زوجة الطبيب المحلي في آيبو في الملايا وحين غزا اليابانيون سنغافورة، كان يسيرا عليها وعلى زوجها ان يهربا الى مكان آمن، فينعما بالراحة والطمأنينة. ولكن وطنيتها، وشعورها بالواجب، قد فرضا عليها ان تبقى مع زوجها، ليقدما لوطنهما مايستطيعان من خدمة، في ظل تلك المحنة.

كانت التلال قد امتلأت برجال المقاومة، فراحت تخاطر بحياتها لتتصل بهم؛ وتبتكر الوسائل لنقل جرحاهم، الى مستشفى قد اعده زوجها، حيث كانوا يعالجون، ويخفون، حتى يصبحوا قادرين على مواصلة الكفاح.

وقد ازعج نشاطها اليابانيين ازعاجا شديدا، واقلقهم قلقا عظيما. فانبعثوا في مطاردتها، وتضييق الخناق عليها، حتى هبطت عليها قبضتهم. فكان الاستجواب المريع الذي لايعرف الرحمة، والعذاب الشديد الذي لايقوى عليه الصبر. ومن عجب، ان هذه المرأة الضعيفة البنية، المحدودة القدرة، قد استطاعت ان تصمد للهول الذي كان خليقا بأن يحطم اصلب الرجال.

وصاحب المصيبة ادرى بها، واقدر على روايتها؛ فلأترك السيدة كاثيكاسو بين يدي القارىء الكريم، لتقص عليه محنتها:

ان اسابيع الاستجواب تستقر في ذاكرتي، مثل كابوس مشوه الصورة، فلا استطيع ان اتذكر التفاصيل اليومية. لقد كنت استدعى للاستجواب، بغتة، في اي ساعة من الليل او النهار؛ مرة او مرتين كل يوم. واحيانا كنت اترك اياما قليلة، ابدو

فيها قد نسيت، ثم تستأنف الاجراءات كالسابق. ولم يكن استجوابهم ينطوي على المكر والدهاء، بل كانوا يسألون الاسئلة نفسها في كل مرة، فأجيب عليها بجواب واحد: «لااعرف». وكل جواب لايرضيهم - واجوبتي كلها من هذا القبيل - كانت تعقبه جرعة قوية من عذاب شديد، تقدم بكميات مختلفة، واشكال متباينة.

وفي العادة، كنت ألكم، واصفع، واضرب بانواع العصي، على مواضع لايبقى فيها اثر دائم. ولكن تلك المواضع كانت تتحول في حينه، الى كدمات صلبة، تجعل من المستحيل علي ان استلقي، او انام بشيء من الراحة. وكانوا، احيانا، يضجرون من هذه الرتابة، فيلجأون الى شيء من التغيير - وعندئذ يأتي ادخال الابر تحت الاظافر، والكي بالقضبان المحمرة، والمعالجة بالماء. وقد يصل الامر الى القيام باللعبة التالية: ترفع يدي في الهواء، وتوضع عصا طويلة بين الاصابع، ثم يتعلق بكل طرف رجل، فيتأرجحان عليها، حتى يتمزق مابين الاصابع تمزيقا.

كان كوينجيكا الياباني، يلجأ الى كل سلاح في حوزته، لكي اعترف ولم تكن لدي من اسلحة المقاومة، سوى التلوي، والصراخ؛ واحيانا كان الاغماء يحنو عليّ، فأحظى براحة مؤقتة، وان كنت لااشعر بها! وهذه نماذج من اسئلته: من هو زعيم المقاومة؟ ماشكله؟ اين مقره؟ كم رجل لديه هناك؟ من هم؟ من اين يحصلون على الطعام؟ من يزودهم بالمال؟ من ينقل اليّ رسائلهم؟ كيف تتسلح المقاومة؟ هل يوجد بينهم جنود استراليون، او بريطانيون، او من الكُرْكة؟ وكان جوابي على هذه الاسئلة، وكثير غيرها، واحدا: لاادري. وكان لزوجي نصيبه من عذابي، ومن اسئلتي؛ بيد اني كنت اوصل اليه اجوبتي، فلا ينطق بما يناقضها.

وذات صباح نقلنا، انا وزوجي، من السجن الى مدرسة جعلها اليابانيون دوائر لهم. وادخلنا الى احدى الغرف، ثم استدعي زوجي الى الغرفة المجاورة. وبعد حوالي نصف ساعة، خرج شاحبا، منهكا، ولكن العزم يبدو في عينيه. ولم يتح لي وقت لكي اكلمه، فقد جاء دوري على الفور. قال احدهم:

- لقد اعترف زوجك بأنه اخرج رصاصات من ساق احد افراد المقاومة، فماذا تقولين؟

- هذا كذب ارغمه عليه تعذيبكم. ان زوجي لاعلاقة له بمعالجة هؤلاء الرجال.

ولقد كانوا لايريدون ان يعلم بما كنت افعل انا؛ بل كانوا لايدخلون البيت وهو فيه. واحسب انه لابد قد اكتشف علاقتي بهم، ولكنه لم يتدخل في الامر، ونحن لم نبحث هذا الموضوع قط.

- لقد قبضنا على ذلك الرجل، فاعترف بأن الدكتور قد اخرج رصاصات من ساقه.

ـ اذن، هو يكذب. لم يفعل الدكتور شيئا من هذا القبيل. بل اني اشك في انه يستطيع ان يجري مثل هذه العملية؛ فهو لم يلمس اداة جراحية، منذ اكثر من عشرين سنة.
ـ اذا لم يكن الدكتور هو الذي اخرج الرصاصات، فيجب ان تكوني، انت، قد فعلت ذلك.

ولم اجب على ذلك. ودهشت اذ انتهت المقابلة على هذا النحو.

وجلسنا، انا وزوجي، ننتظر عدة ساعات، دون ان يسمح لاحدنا بأن يكلم الآخر. وبعد منتصف النهار، اقتادونا الى حيث كنا في مركز الشرطة.

كانت الطرق في تلك الساعة مزدحمة؛ فرأينا العديد من الاصدقاء والمعارف. ولم يلتفت الينا بعضهم؛ ولعلهم خافوا من ان يقروا بأنهم يعرفون مجرمين خطرين مثلنا، او لربما انهم لم يتفق ان لاحظونا او عرفونا. وليس غريبا الا يعرفونا؛ فقد كان وجهي منتفخا، ومشوها، من اثر الضرب؛ بينما كان زوجي قد حرم من الحلاقة، فتدلت له لحية طويلة، وهبط شعر رأسه الى كتفيه، محيطا بوجه هزيل شاحب. وقد عرفنا البعض، فحيانا بكلمة او ابتسامة؛ فرددنا لهم التحية، بقدر مانستطيع من البشر.

كنا نسير حافيين، فرأينا سيارتنا يرفرف عليها علم الحاكم الياباني. وسمح لنا الحارس بأن نتكلم، ونحن سائران جنبا الى جنب. فأخبرت زوجي بما قلت للضباط اليابانيين، وطلبت اليه ان يتمسك بافادتي. وقد انزعج للغاية، حين انبأته بأني قد جعلت كل المسؤولية في معالجة افراد المقاومة على عاتقي. قال:
ـ لماذا فعلت هذا يابلْ؟ انهم سوف يقتلونك.
ـ اني اعلم انهم سوف يقتلونني على كل حال. ولكني لاأموت الا ميتة واحدة، فلا معنى لان اقحمك فيها. هذا هو التفكير السليم.
ـ اني اكره هذا التفكير يابلْ.
ـ واطفالنا ياز يو، من الذي سوف يعنى بهم اذا فقدونا معا. ان عليك ان تبقى على نفسك. ولا يهم ماتقوله عني لليابانيين. بل الافضل ان تعترف لهم ضدي، بدلا من ان تقاومهم بالانكار. اجل، ابق على نفسك من اجل الاطفال، وسوف اخوض معركتي بمفردي. بيد اني لن استسلم على الاطلاق. ولم يجب زوجي بشيء. كما ان الحارس لم يسمح لنا بالمزيد من الحديث. وفي تلك الليلة، رحت افكر في الموقف. لقد علم اليابانيون بالرجل الذي عالجناه؛ فأصبحت الرصاصات التي اخرجناها، ودفنتها في الحديقة، تهديدا خطيرا لحياة زوجي. فلو قام اليابانيون بتحر دقيق، فانهم سوف يعثرون عليها. وعلى ذلك، كتبت الرسالة التالية الى ابنتي اولكا:

عزيزتي اولكا

اذهبي على الفور الى بابان، وقولي له ان يوعز الى دومينيك بأن يخرج القنينة التي جعلت فيها الرصاصات، من مدفنها في الحديقة. فهو وحده الذي يعرف مكانها. حطمي القنينة، واقذفي بالرصاصات في النهر حين تعبرين الجسر في طريقك الى آيبو. واحرصي كل الحرص على إن لايقبض عليك احد، والرصاصات بحوزتك، ان حياة والدك قد تتوقف على تنفيذ هذه التعليمات. لاتجيبي على هذه الرسالة، ولكن ارسلي بيضة مسلوقة مع طعامي، اذا انجزت ماطلبت اليك.

حبي وقبلاتي اليك، والى دون وكراني.

والدتك المحبة

كتبت هذه الرسالة بأحرف ناعمة، على ورقة صغيرة؛ ثم دفعتها الى الخادم حين اقبل ليؤدي واجبه اليومي؛ ورحت اراقبه وهو يدسها بعناية، في طية عمامته البالية. قلت له:

- لاتعط هذه الرسالة الى احد غير ابنتي اولكا. وليس هناك من جواب عليها.
- ثقي بي ياسيدتي.

وشعرت براحة عظيمة، حين وجدت في اليوم التالي بيضة مسلوقة في وجبة عشائي. فطلبت الى الخادم الوفي ان يوصل الى زوجي هذا الخبر: لقد تخلصت اولكا من الرصاصات، فلا خوف، بعد الآن، من ان تكتشف.

وفي الصباح التالي، اخذونا ثانية الى مقر الحاكم الياباني. فبدأوا باستجوابي. وقد ارتحت لذلك، اذ كان امارة على انهم لم يعودوا يهتمون بزوجي.

قال احد الضباط:

- انت، اذن، قد عالجت رجل المقاومة الجريح؟
- لم افعل شيئا من هذا القبيل.
- هل تنكرين انك قد عالجت شخصا مجروح الساق؟
- اني اتذكر انْ قد عالجت رجلا لديه قرحة في رجله، ان كان هذا هو الذي تعنيه.
- كيف اصيب بالقرحة؟
- كثيرون يصابون بها. واحسب ان السبب هو وجود الكثير من مستحضر «التابيوكا» في طعامهم.

ثم بذلوا اقصى مايستطيعون، لكي اعترف بشيء، فلم يحصلوا الا على كدمات، ونزيف في انحاء جسمي. فتركوني في غرفة الانتظار، وانا بين الموت والحياة.

وجاء دور زوجي، فرحت اسمع الضرب والانين؛ وجعلت اصلي لكيلا يحاول ان يجعل من نفسه درعا لي. ثم اعيد وهو في حالة لاتوصف، فسقط في جانب من الغرفة ممزق الثياب، وهو يتلوى ويئن. ولم تتح لي الفرصة لاقول له كلمة، فقد اقتادوني ثانية للاستجواب. وفي الممر، ابطأ المترجم الهندي في مشيه، فأخبرني بأن زوجي قد اعترف بأني قد سألته، مرة، عن مواقع اليابانيين، لكي اتحاشاهم عند نقل الجرحى، وانه يطلب اليّ ان اعترف بذلك، فأوفر على نفسي المزيد من العذاب.

وارتحت لهذا الخبر. ذلك اني اذا واصلت الانكار، فقد يحملهم ذلك على اعتبار زوجي غير موثوق بما يقول، فيكفوا عن ايذائه.

قال قائلهم:

- لقد اعترف زوجك بأنك كنت تسألين عن قواتنا، لتهربي الجرحى.
- اذا كان هذا صحيحا، فهو يكذب تجنبا للتعذيب.
- انت الكاذبة، وسوف تنالين ماتستحقين حتى تقولي الحقيقة.

وكان صادق الوعيد، فقد بدأ العقاب على الفور، ولم ينته حتى سقطت على الارض فاقدة الوعي. ولما استعدت شيئا من شعوري، وجدت زوجي يسند رأسي بيد، ويجس نبضي باليد الاخرى. وطلبت شيئا من الماء، فلم يجسر احد على الايتان به، حتى سمح بذلك احد الضباط الذين كانون يستجوبونني. وطفق زوجي يساعدني على الشرب، فما كدت افرغ من ذلك، حتى دفعوه بعيدا، مذكرين اياه بأنه اسير لا طبيب.

وعدنا الى مقر الشرطة، فارتاعوا لمنظري وحالتي. وبلغ من ذلك ان قذف حارس الباب ببندقيته، فحملني بذراعيه الى مكاني. وقال وهو يكاد يبكي: سيدتي، اني اريد الآن ان انتقم بيدي من كل ياباني تقع عليه عيني. فقلت: دع عنك هذا، فأنه حماقة. ان هذه الحال لن تدوم، ثم هناك اسرتك التي تعيلها، فلا تفرط في واجبك نحوها. وتجمع حولي رجال الشرطة الذين كانوا يعطفون عليّ، فقال احدهم:

- هذا فظيع. هل نستطيع ان نفعل لك شيئا؟
- شكرا. ولطيف جدا ان اكون، ثانية، بين الاصدقاء. اني اريد قطعة صغيرة من الثلج، لاضعها في فمي.

واسرع رئيس المركز، فجلب من منزله القريب، قطعة من الثلج، وشيئا من اللبن. ولكني لم استطع ان اشرب. فراحوا يصبونه في فمي، قليلا قليلا، بملعقة صغيرة.

ولما جن الليل، جلبوا الي مصطبة، وكمية من الاغطية الناعمة. وكانت ثيابي

ملتصقة بجسمي، في المواضع التي يبست فيها الدماء. فجعلوا يعالجون كل موضع بالماء، حتى تنفصل الثياب عن الجروح. ثم البسوني ثيابا اخرى، وشملوني برعاية وحنان، قلما يصدران عن احسن الممرضات. هنـالك نسيت محنتي، وعلمت ان الارض اذا كانت لاتخلو من الشر، فانها لاتخلو من الخير ايضا.

لقد تجاوز هؤلاء الناس البسطاء كل الحدود، لكي يوفروا بقدر طاقتهم شيئا من الراحة والمواساة، لامرأة مستضعفة تتعذب. فقلت لهم:

- اني قلقة عليكم. فماذا انتم صانعون اذا جاء الى هنا ضابط ياباني؟

- لاتقلقي ياسيدتي، فهذا من شأننا؛ وسوف نجد له الحيلة والوسيلة.

ولم استطع ان اقدم لهم غير الشكر. واي شكر يجزي مثل هذه القلوب الرحيمة!

وبقيت كاثيكاسو في سجنها وعذابها حتى اندحر اليابانيون؛ فنقلت الى انكلترا بالطائرة، وهي في مرض واعياء شديدين. واقيم لها تكريم حافل في قصر بكنكهام، فمنحت مدالية جورج. ولكن فترات العذاب قد تركت في جسمها ونفسها آثارا لاتمحى. وعلى الرغم من كل العناية الطبية التي بذلت لها، فقد توفيت بعد سنوات قليلة، بعد ان ضربت مثلاً في الصبر والتضحية.

جاسوسية الفضاء

في الخامس من مايس ١٩٦٠ ، القى نيكيتا خروشوف ، رئيس وزراء الاتحاد السوفياتي ، امام مجلس السوفييت الاعلى في الكرملن ، خطابا طويلا اعلن في آخره ، ان طائرة امريكية قد حلقت في اول ذلك الشهر فوق الاتحاد السوفيتي ، وانها قد اسقطت . وقال انه سوف يعرض الامر على مجلس الامن ، لوضع حد للاعمال العدوانية التي تقوم بها الولايات المتحدة .

وقد اتاح فرق الوقت بين العاصمتين ، للناطق بلسان وزارة الخارجية الامريكية ، ان يرد على تصريحات خروشوف في اليوم نفسه . فقد اعلن لرجال الصحافة في واشنطن ان الوزارة قد علمت من ادارة الفضاء والطيران القومية **NASA** ان طائرة غير مسلحة من نوع **U - 2** خاصة بابحاث الفضاء ، ويقودها طيار مدني ، قد فقدت منذ الاول من مايس . وقال من المحتمل جدا ان الطائرة نتيجة لاختلال جهاز الاوكسجين ، وفقدان الطيار لوعيه ، قد استمرت في الطيران بصورة اوتوماتيكية لمسافة بعيدة ، وبذلك خرقت المجال الجوي السوفيتي . ثم ذكر ان الحكومة الامريكية على اتصال بالحكومة السوفيتية حول مصير الطيار .

وبعد يومين ، قدم السيد خروشوف لمجلس السوفييت الاعلى تفاصيل جديدة ، فقال : «ايها الرفاق ، يجب علي ان اطلعكم على سر . اني حين اعلنت حادث الطيارة ، تعمدت ان لا اقول ان الطيار حي ، وانه بخير ، واننا قد حصلنا على اجزاء من الطائرة . ولو كنا قد ذكرنا القصة كاملة ، لفكر الامريكيون برواية اخرى للحادث !»

ثم ذكر ان الطيار يدعى فرانسس جي باورز ؛ وانه كان ملازما في القوة الجوية الامريكية ، ثم التحق بوكالة المخابرات المركزية ، فاصبح راتبه الجديد الفين وخمسمائة دولار شهريا . واوضح ان الطيار لم يصب بدوار ، وان جهاز الاوكسجين لم يلحقه خلل ، بل ان الطيار قد اتبع اتجاها مرسوما ، حسب اوامر رؤسائه ،

يشغل الاجهزة فوق مناطق معينة ، لجمع المعلومات عن الاهداف العسكرية والصناعية . وقد واصل تحليقه عامدا ، حتى اللحظة التي قطعت عليه فيها هذه القرصنة الجوية . واعلم مستمعيه ان عدة الطائرة ، والتصاوير الملتقطة ، قد صارت في حوزة الاتحاد السوفيتي ، ثم راح يعرض بعض تلك التصاوير ، وهو يعلن بدعابته المعروفة : «ان الكاميرا ليست رديئة ، فالتصاوير في غاية الوضوح . . ولكن يجب ان اقول ان تصاويرنا افضل . . ولذلك فانهم لم يكسبوا ، حقا ، الشي الكثير !»

ومضى السيد خروشوف يفصل ، بلهجة ساخرة ، الاشياء التي زود بها الطيار . فرفع امام الحاضرين ابرة وهو يقول : «تكفي غرزة واحدة بهذه للانتقال الى عالم الاموات . . . وهذا آخر ما انجزه الفن الامريكي لقتل الرعايا !» ثم ذكر ان الطيار كان يحمل مسدسا صامتا لاستعماله عند الضرورة ؛ وهذا دليل آخر على نوع المهمة العلمية التي كلف بها . وكان لدى الطيار مقدار كبير من العملة السوفيتية ، وكميات من عملات اخرى . فقال خروشوف : «لقد زعموا انه قد ارسل لريادة الفضاء ، فمتى واين ، ولم كان يستعمل هذه النقود ؟» واستمر خروشوف يقول : والى جانب ساعته الخاصة ، زود بساعتين ذهبيتين ، وبسبعة خواتم نسائية ذهبية ؛ ولربما كان عليه ان يطير الى اعلى مما فعل ، حتى يبلغ المريخ ، فيغوي النساء هناك !

وسرت هنا موجات الضحك بين الحاضرين ؛ ولكن خروشوف سرعان ما ردهم الى الواقع المر . قال : لا تستطيع اية تلفيقات روائية ، ان تنقذ سمعة المسؤولين عن هذا الغدر . لقد قبضنا عليهم متلبسين بغزو المجال الجوي السوفيتي ، بينما مؤتمر القمة في باريس على الابواب ، وزيارة الرئيس ايزنهاور لنا على وشك الابتداء . وهذا في اعتقادي اسلوب رديئ للتهيؤ لمباحثات جدية حول التخفيف من التوتر الدولي .

وقد كان لهذه البيانات رد فعل شديد في واشنطن . فقد اصدرت وزارة الخارجية الامريكية في نفس اليوم بيانا جاء فيه : على الرغم من ان التحقيق الذي امر به الرئيس قد اثبت ، بقدر تعلق الامر بالسلطات في واشنطن ، انه لم يكن هناك اي تخويل للتحليقات التي وصفها خروسوف ، فلربما قد جرت هذه التحليقات من اجل الحصول على معلومات تخفى ، الان ، وراء الستار الحديدي . فبالنظر لخطر الهجوم المباغت ، كانت طائرات مدنية ، غير مسلحة ، من نوع U - 2 ، تقوم بتحليقات على امتداد حدود العالم الحر ، طوال الاربع سنوات الماضية .

ويبدو ان وزير الخارجية الامريكية ، هرتر ، قد شعر بما في هذا البيان من تخبط ؛ فقد بادر بعد يومين ، الى توضيحه على النحو التالي : اقول بصراحة ، انه من غير

المعقول ان تترك الفرصة للاتحاد السوفيتي ، للقيام بتحضيرات سرية لا تدع للعالم الحر الا خيارا واحدا ـ فاما التسليم الذليل ، واما الدمار الذري . ان حكومة الولايات المتحدة ، لتهمل مسؤولياتها تجاه الشعب الامريكي ، وتجاه العالم الحر باسره ، اذا هي لم تتخذ على انفراد ، ازاء عدم تعاون الاتحاد السوفيتي ، ما هو كفيل بازالة خطر الهجوم المباغت ، او التقليل منه .

وفي الحادي عشر من مايس ، عقد آيزنهاور مؤتمرا صحفيا ايد فيه وزير خارجيته . وصرح بان الحاجة الى عمليات الاستطلاع وجمع المعلومات امر بغيض ، ولكنه حيوي كاجراء تحفظي ضد هجوم مباغت . واوضح ان هذه العمليات ، انما تجري بمعزل عن الوكالات الحكومية الاعتيادية ؛ وان لها طرقها الخاصة في الاخفاء . وعلى ذلك ، فان الوكالات الحكومية لا تعرف شيئا عن هذه العمليات الخاصة ، ولا عن الجهود التي تبذل لاخفائها .

وفي الاجتماع التمهيدي لمؤتمر باريس ، الذي حضره كل من خروشوف ، وديكول ، وماكملان ، وآيزنهاور ، بين السيد خروشوف انه اذا تعهدت الحكومة الامريكية ، على الفور ، بانهاء خرقها للحدود السوفيتية ، واذا اصدرت بيانا يدين الاعمال الاستفزازية التي جرت في الماضي ، واذا اعطت تأكيدا بمعاقبة المسؤولين مباشرة عن هذه الاعمال ، فهو ، عندئذ ، سيكون مستعدا للاشتراك في المؤتمر ، ولبذل كل الجهود لانجاحه .

ولكن الرئيس آيزنهاور ابى ان يفعل كل ذلك ؛ وكانت حجته انه لا يقدر ان يلزم خلفه في البيت الابيض بمثل هذا الالتزام . وبين ان اقصى ما يستطيع ، هو التصريح بان هذه التحليقات قد اوقفت ، وانها سوف لا تستأنف في اثناء رئاسته ولم يرض السيد خروشوف بذلك ، ورفض الاشتراك في المؤتمر ، فذهب اجتماع القمة هذا هباء .

هنالك قررت الحكومة السوفيتية ، ان تضع هذه القضية بين يدي مجلس الامن ، وطلبت اليه ان يدين هذه التحليقات ، باعتبارها عملا عدوانيا من جانب الولايات المتحدة . فجرت مناقشات حامية مدة خمسة ايام ، قرر المجلس في اثرها رفض التهمة باغلبية سبعة اصوات ضد صوتين . وكانت حجة الرفض ، ان تحليق طائرة واحدة غير مسلّحة ، لاغراض استطلاعية ، عمل لا يكاد يستدعي الادانة ، بموجب ميثاق الامم المتحدة .

وبذلك اصبح موقف خروشوف حرجا . فلقد اعتذرت حكومات تركيا ، والباكستان ، والنرويج ؛ وتعهدت باتخاذ جميع الخطوات الممكنة ، للحيلولة دون

استخدام اقاليمها لمثل هذه الاغراض ؛ ولكن الفاعل الاصلي لم يعتذر ، بل راح يصب اتهامات مقابلة ويصر على الاستمرار فيما فعل عند الضرورة .

- ٢ -

وصفت طائرة U-2 ، رسميا ، بانها طائرة لاستطلاع طبقات الجو العليا . واسمها مشتق من كلمة Utility باصطلاح القوة الجوية الامريكية . وقد صممها كلارنس جونسن سنة ١٩٥٤ لحساب القيادة الجوية الامريكية الاستراتيجية . وهو كبير مهندسي شركة لوكهيد للطائرات ؛ والمشرف على صنع اول طائرة نفاثة امريكية ، في الحرب العالمية الثانية . وكان هدفه من صنع طائرة U-2 ، ان ترقى الى ارتفاع سبعين الف قدم او اكثر ، ثم تبقى في رقيها هذا دون ان تلحق بها طائرات الميك ، او تدركها القذائف الصاروخية . وهكذا تستطيع ان تواصل الاستطلاع بحرية تامة . وفي ضوء هذا الهدف صنعت الطائرة : فطول هيكلها لا يتجاوز خمسين قدما ، في حين ان جناحها الضخم يمتد الى ما لا يقل عن ثمانين قدما . وقد صنعت من معادن خفيفة الوزن ، من بينها التيتانيوم ، لذلك فان وزنها وهي فارغة لا يتجاوز الخمسة اطنان . وهي تحمل الف (كلن) تقريبا ، من وقود منقى بطريقة خاصة ، بحيث لا يتبخر في الاجواء العالية . وهذه الكمية من الوقود ، تدفع الطائرة الى مدى ثلاثة الاف ميل . اما على الارض ، فهي مركبة تجرى بسرعة الدفع النفاث الى مسافات طويلة ، دون ان تضطر الى التحليق وهي في الـ ع لا تبلغ اوج ارتفاعها ، الا بعد ان تنطلق افقيا مسافة مائة الف قدم ، او ما يقرب من ثمانية عشر ميلا .

واخطرها في هذه الطائرة ، الكاميرا . فهي من نوع خاص : دوارة العدسة ، طويلة المسافة البؤرية ، عريضة الزاوية ، تلتقط التصاوير من سبع فتحات . وهي تستطيع بفلم واحد ، ان تجمع اربعة الاف صورة ، فتغطي منطقة عرضها ١٢٥ ميلا ، وطولها ٢١٧٠ ميلا . وتستطيع ، ايضا ، ان تلتقط تصاوير كبيرة ، تتضح فيها اغلب الاهداف الصناعية والعسكرية . ومن مكناتها المدهشة ، انها تميز رأس مسمار من ارتفاع ستة اميال ، وتصور العناوين الاولى في صحيفة من فوق تسعة اميال ، وتشخص آثار الاقدام في الثلج من علو اثني عشر ميلا !

وفي اواخر سنة ١٩٥٥ ، تعاونت القوة الجوية ، ووكالة المخابرات المركزية ، واللجنة الاستشارية القومية للطيران ، على وضع برنامج لاستخدام هذه الطائرة .

وفي سنة ١٩٥٦ ، شكلت القوة الجوية الامريكية اول وحدة من هذه الطائرات ، وراحت تعمل من منطقة محرمة في نيفادا .

- ٣ -

وكان من مقتضى كتمان الاغراض الحقيقية لهذه الطائرة ، استخدام طيارين مدنيين ، متطوعين ، من ذوي الخبرة والمهارة في تشغيل الطائرات النفاثة . وكان احد هؤلاء فرانسس كاري باورز . وهو شاب في السابعة والعشرين ، فقير الاسرة ، فاضطرته الحاجة والرغبة معا ، الى الانخراط في سلك القوة الجوية ، من قبل ان يدعى الى الخدمة . وبعد انتهاء خدمته ، سعى للاشتغال في الطائرات التجارية ، ولكن سنة حالت دون ذلك . وبينما هو في ظلمة اليأس ، عرضت عليه وكالة المخابرات المركزية ان يعمل لديها ، فرحب بهذا العرض . وقد اعلم بان مهمته تتطلب ان يغيب عن اسرته حوالي الثمانية عشر شهرا ؛ وان واجبه الرئيسي هو التحليق على امتداد الحدود السوفيتية ، لجمع المعلومات عن محطات الاذاعة والرادار ؛ ومن المحتمل ان يكلف بواجبات اخرى .

وكان العقد الذي وقعه مع وكالة المخابرات المركزية ، عقد خدمة سرية ، يعرضه لعقوبات صارمة ، اذا هو افشى شيئا عن عمله الجديد . ثم الحق بدورة تدريب تحت اسم مستعار ؛ بحيث اذا وقع له حادث ، فلا يجوز لغير اسرته ان يعلم باسمه الحقيقي . وبعد انتهاء الدورة ، الحق بوحدة تسمى مفرزة ١٠ - ١٠ ، مقرها في قاعدة انسيرلك بالقرب من ادنه . وكان المقرر ، في البداية ، ان لا يصطحب زوجته ، لعدم وجود اماكن للمتزوجين في القاعدة ؛ ولكن اتخذت بعدئذ ترتيبات خاصة لالتحاق زوجته به ، وخصصت لهما القطيرة الاخيرة من قطائر المفرزة .

وفي السابع والعشرين من نيسان ، اقبل باورز على زوجته في حوالي السادسة مساء ، فطلب اليها ان تعد له وجبة كبيرة ؛ وراح ، هو ، يحزم عدته . وقد علمت باربارا معنى هذه الوجبة . وكانت الشمس ، آنئذ ، تجنح الى المغيب بين الجبال ؛ فتطلعت الى الافق البعيد ، وقالت في نفسها : سيكون له على الاقل جو صالح للرحلة .

ومضت ايام قليلة . فلما كان صباح الثامن من مايس ، اقبل عليها احد اصدقاء زوجها وهو يقول : لدينا اخبار سيئة . . لقد فقد باورز . . وانطلقت طائرات البحث في اثره ، ولكنها لم تعثر عليه . فوقع عليها الخبر وقوع الصاعقة ، وهوت من

فورها الى الارض ؛ ولم تصح بعد ذلك ، الا عندما كان طبيب القاعدة يعالجها بالابر . وقضت اليوم التالي امام المذياع ، تنتظر الاخبار ، ولكن ليس من خبر ، هنالك نصح لها آمر القاعدة ان تعود الى الولايات المتحدة . فصرت بعض امتعتها على عجل ، واستقلت الطائرة الى حيث والدتها في ولاية جورجيا . وكان في استقبالها في مطار أطلانطا ممثل لشركة لوكهيد . وصادف ذلك اليوم يوم الام ؛ فطلبت الى مرافقها ان يقف في بعض الطريق ، لتشتري هدية لوالدتها وبينا كانت تدور بعينيها في انحاء المخزن ، اذا بمجموعة من الصحف واذا بصورة زوجها تملأ الصفحة الاولى ، واذا الخبر المزعج ان قد وقع في الاسر .

- ٤ -

طار باورز من ادنه الى بشاور ، بطائرة نقل تابعة للقوة الجوية الامريكية ، بصحبة حوالي العشرين من منتسبي مفرزته ، وبضمنهم آمرها العقيد شيلتون . وقضى اليومين التاليين في الاستعداد للتحليق بطائرة الـ U - 2 وطفق الامر شيلتون يفصل المهمة ، ويعطي التعليمات . وقد طمأن باورز الى ان التحليق فوق الاتحاد السوفيتي على ارتفاع ٦٨,٠٠٠ ، يجعله بمأمن من جميع وسائل الدفاع الجوية هناك . ثم اعطاه اهدافا معينة لتصويرها ، وكان من بينها مواقع الصواريخ الى الشرق من بحر الآرال ؛ ومواقع اخرى لاطلاق القذائف ، غامضة الشكل ، تشبه القباب ، تقع الى الشمال الغربي من جليابنسك ، والى الشمال والجنوب من كيروف ؛ واخيرا قواعد الطائرات والغواصات في منطقة ارجنجل وميرمانسك . ثم امر باورز بانه في حالة حدوث اي خلل فني في المرحلة الاولى من التحليق ، يحول دون اتمام مهمته ، فان عليه ان يعود الى بشاور ؛ اما اذا حدث الخلل في مرحلة متأخرة من التحليق ، فان عليه ان يتخذ اقرب طريق الى بودو على الساحل الغربي من النرويج ؛ اما اذا اضطر الى الهبوط ، فله اذا استطاع ان يختار اي مطار خارج الاتحاد السوفيتي ، فان لم يستطع ، كان عليه ان يدمر الطائرة تدميرا كاملا ، بواسطة ازرار خاصة اعدت لهذا الغرض ، ثم يستعين بعدة النجاة للوصول الى اقرب منطقة للحدود .

وفي اثناء هذه التوجيهات ، كان باورز يزود بمختلف الاشياء التي تستلزمها مهمته ؛ وكان الخبراء يركبون في طائرته الاجهزة الاضافية : جهاز التصوير المعقد ، جهاز تسجيل اشارات محطات الرادار ، جهاز التشويش على هذه المحطات . وقبل موعد التحليق بساعتين ، ارتدى باورز البدلة الخاصة ، وراح يقوم بتمرينات عنيفة ، دقيقة ، تتعلق بالتنفس في الاجواء العالية .

في الساعة السادسة والنصف من صباح الاول من مايس ، حسب التوقيت المحلي ، انطلق باورز في الجو من مطار بشاور . وفي دقائق قليلة عبر الحدود الافغانية ، وبعد نصف ساعة ، كان يمرق فوق جبال هند كوش ، فيعبر نهر اوكسس ، فيصبح فوق الاراضي السوفيتية .

عبر الحدود على ارتفاع ٦٦,٠٠٠ قدم ، ثم راح يمضي ضعدا كلما قل الوقود ، وخف وزن الطائرة . وكان كل شي على ما يرام ، والاجهزة تعمل بانتظام . فبسط الخارطة ، وراح يضغط الازرار ، وراحت الكاميرا تتلصص فتصور الاهداف ، ومن بين ما صورته في هذه المرحلة ، مواقع الصواريخ الى الشرق من بحر الاورال بأسرها .

قطعت الطائرة ١٣٠٠ ميل ، وفق الخطة المرسومة . ولكن شبكات الرادار كانت قد وقعت عليه منذ اللحظة التي عبر فيها الحدود السوفيتية ـ الافغانية ؛ فراحت ترصد اتجاهه ، وتلاحقه اقرب من ظله ، فتتهاداه مسلمة اياه كل واحدة الى الاخرى ! وقبل الساعة التاسعة صباحا ، حسب توقيت موسكو ، كانت الطائرة تقترب من مدينة سفير دلوفسك ، الواقعة في وسط البلاد تقريبا ، وكانت بطاريات الجو في هذه المدينة ، تنتظرها على غاية الاهبة ، فما كادت الطائرة تصبح على ارتفاع ٦٨,٠٠٠ قدم ، فتدخل مجال الرمي ، حتى انطلق احد الصواريخ . وهذا باورز يصف لنا النتيجة : بدون اي توقع ، سمعت انفجارا اجوف ، ورأيت بريقا برتقاليا ؛ فراحت الطائرة تنحدر بغتة الى الاسفل واحسب ان جناجيها ، ومؤخرها ، بدأت تتساقط . ولربما ان الطائرة لم تصب مباشرة ، بل وقع الانفجار بالقرب منها ، فتأثرت بقوته ، وبالشظايا المتناثرة من حوله . وحين بدأت الطائرة تهوى ، خرجت من فوق بالمظلة ، وانفتحت هذه تلقائيا .

ولم يستطع باورز ان يستخدم المقعد القاذف ، بالنظر لفعل قوى الجذب ، داخل الطائرة الهاوية . ولو استخدمه ، لتسنى له تشغيل الجهاز الخاص بتدمير الطائرة ، فحال بذلك دون معرفة سرها الى الابد .

وعلى الرغم من اضطرابه ، وسوء ظروفه ، فقد كان هبوطه ناجحا ، ولم يورثه سوى جلطة في قصبة رجله ، وسواد حول احدى عينيه . وقد شاهده اربعة رجال كانوا بالقرب من المكان ، فتقدموا لمساعدته ؛ ولما ادركوا انه اجنبي ، جردوه من مسدسه وخنجره ، ثم اقتادوه في سيارة الى اقرب قرية . وهنا كان رجال الامن في

انتظاره ، فنقلوه بالطائرة في نفس اليوم الى موسكو . ولم يحل المساء حتى كان قد استقر في سجن لوبيانكا .

- ٦ -

تولى التحقيق لجنة امن الدولة ، ودائرة الادعاء العام ، باشراف السيد خروشوف ومجلس الوزراء . وقد استمر حوالي ثلاثة اشهر . وفي هذه الفترة ، لم يكن باورز يقابل احدا سوى محاميه والمحقق ؛ ولكنه كان يعامل معاملة حسنة ، اعترف هو بها في اثناء المحاكمة ، وفي رسائله الى زوجته من السجن . وبعد انتهاء التحقيق راح يقضي اوقات الفراغ في المطالعة ، فزود بنسخة من الكتاب المقدس كان يقرأ فيها كل يوم ، كما اتم قراءة رواية ذهب مع الريح .

وابتدأت المحاكمة في السابع عشر من آب ١٩٦٠ ، في قاعة الاعمدة الضخمة ، بمقر نقابات العمال . وقد تولتها الهيئة العسكرية للمحكمة العليا . اما الاتهام ، فقد تولاه المدعي العام ، العقيد رومن رودنكو ، وهو الذي ترأس فريق الاتهام في محاكمات نورميرك . واما الدفاع ، فقد تولاه المحامي ميخائيل كرينييف ، من نقابة المحامين في موسكو .

وقد حضر المحاكمة حوالي الفين وخمسمائة شخص ، من بينهم الهيئات الدبلوماسية ، ومراسلو الصحف الاجنبية ، وضيوف الدولة البارزون ، ووالدا المتهم وزوجته ، ومحاميان امريكيان حضرا كمستشارين للاسرة ، لان القانون السوفيتي لا يسمح لهما بالاشتراك في المحاكمة . وبعد تلاوة التهمة ، بدأ المدعى العام باستجواب المتهم ، وراح يحاول استدراجه الى الكشف عن تفاصيل الرحلة المشؤومة ، مركزا على النقاط التي تتجلى فيها مسؤوليته الشخصية .

وحين جاء دور الدفاع في الاستجواب ، راح الاستاذ كرينييف يوجه الاسئلةّ الى المتهم ، ليوضح انه نشأ في عائلة فقيرة ، وانه قد قبل هذا العمل لسداد ديونه ، وان تصرفه كله كان تنفيذا للاوامر الصادرة اليه ، دون ان يعلم على وجه الدقة ما هي قدرات الاجهزة التي يشغلها .

ثم ابرز المدعى العام نداء مطبوعا باربع عشرة لغة ، وجد في حوزة المتهم . فتلا رئيس المحكمة النص الروسي ، وهذه ترجمته : اني امريكي لا اعرف الروسية ، وفي حاجة الى طعام ، ومأوى ، ومعونة ؛ ولست اريد بكم اذى ؛ وليست لدي نيات سيئة ضد شعبكم . فان ابديتم لي المساعدة ، كافأتكم على ذلك .

وقال باورز انه لا يدري من الذي زوده به . ولعل الذين ساعدوه في ارتداء بدلته

الخاصة ، هم الذين وضعوه في جيبه مع الاشياء الاخرى .
فسأله المدعى العام .

- اكل هذه الاشياء لرشوة الشعب السوفيتي ؟
- لوتيسر ذلك لفعلت ؛ فلقد كان علي ان اسير حوالي الف واربعمائة ميل . بعبارة اخرى ، ان النقود ، والاشياء الثمينة الاخرى ، هي لاستعين بها بأي شكل .
- ولكنك ، بالطبع ، لم تستطع استخدامها للرشوة . فان الذين وجدوك ، جردوك من السلاح ، وسلموك الى السلطات .
- اني لم احاول رشوة هؤلاء .
- انا واثق من ان محاولتك كانت تبوء بالفشل .
- وانا ، ايضا ، اظن ذلك .
فانفجرت في القاعة عاصفة من الضحك .
ثم وجهت المحكمة الى المتهم بعض الاسئلة . وكان من بينها ما يلي :
- ما هي مدة خبرتك في الطيران الفعلي ؟
- الف ساعة : خمسمائة ساعة بطائرة الـ **U - 2** ، وما يقرب من ذلك بالطائرات المقاتلة .

- ماذا كانت خططك اذا ما التقيت بمقاتلات سوفيتية فوق الاتحاد السوفيتي ؟
- لقد اخبرت بانه لا يوجد مثل هذا الخطر ؛ واني قدأرى احدى هذه المقاتلات ، ولكن على ارتفاع اوطأ . وقد رأيت اثرا لطائرة تحتي ، ولكني لا استطيع تحديد نوعها ، اذ لم ار منها سوى الاثر .
- ما هي الاجهزة المركبة في الطائرة ، وماذا تعرف عن امكانياتها ؟
- لقد علمنا كيف نقود الطائرة ، وكيف نشغل الاجهزة ونحن في محل القيادة ؛ ؛ اما طبيعة هذه الاجهزة فلا نعلم عنها شيئا . ولقد نما الي ان هناك كاميرات تنصب ، ولكني لا استطيع ان اخبركم حتى من اي حجم هي .

- هل كنت تعلم بنوع المعلومات التي تستطيع جمعها فوق الاتحاد السوفيتي ، بواسطة الاجهزة المنصوبة في طائرتك ؟
- كنت استطيع ان اخمن ذلك تخمينا ؛ فاني لم اعلم شيئا عن قدرات هذه الاجهزة . وكل ما علمته انها تستعمل لجمع المعلومات ، دون ان تكون لدي فكرة عن نوع هذه المعلومات ومقدارها .

وكان اول الشهود ، الرجال الذين عثروا على المتهم عند هبوطه ؛ وقد اجمعوا على انه قد استجاب لهم دون اية مقاومة ثم شهد المهندسون الذين فحصوا حطام الطائرة على انها كانت بدون علامات تدل على هويتها . ولكن المتهم ذكر ان كل طائرة رآها في انسرلك ؛ كانت تحمل نوعا من العلامات ، ثم تساءل عما اذا كان يمكن ان تزال مثل هذه العلاقات دون ان تترك اي اثر . فاجاب الخبير بان هذا ممكن ؛ ومع ذلك ، اصرّ باورز على انه قد كانت هناك علامات على طائرته قبل التحليق وان استدرك بانه ليس بخبير في هذه الامور .

ثم تقدم للشهادة الخبير بشؤون التصوير، فقال لقد تبين من فحص الصور السالبة انها قد التقطت من ارتفاع يتراوح بين الـ ٦٠٠ و ٦٥ والـ ٦٨,٩٠٠ قدم ؛ وانها قد غطت مساحة تمتد من شمال الحدود السوفييتية ـ الافغانية حتى مدينة سفير دلوفسك ؛ وان الفلم مفرط الحساسية ، ومعد خصيصا للمسح الجوي من علو شاهق ؛ وان الصور الملتقطة تشمل المناطق الكثيفة السكان ، والمنشآت الصناعية والعسكرية ، ومحطات القوة الكهربائية ، والمخازن العمومية ، والمناجم ، ووسائل الاتصال المختلفة ، والبطاريات المضادة للطائرات .

وقال خبير الاسلحة ان المسدس الذي وجد في حوزة المتهم ليس سلاحا رياضيا للصيد كما زعم المتهم ، بل سلاحا للاطلاق الصامت في حالتي الهجوم والدفاع ؛ فقاطعه باورز ليقول ان المسدس قد اعطي له للصيد فقط ؛ ثم اضاف ان من سوء الحظ ، ليس هناك غيره من يعلم انه لايستطيع ان يقتل شخصا ، حتى في حالة الدفاع عن نفسه . وحين علق رئيس المحكمة بأنه من الصعب ان يظفر المتهم بصيد في الفضاء ، وهو على ارتفاع ٦٨,٠٠٠ قدم ، اجاب باورز : «اجل ، اعلم ذلك . ولكن المسدس كان للاستعمال عند الهبوط على الارض اضطرارا» .

وشهد خبير السموم بأن السم الموجود في الابرة هو من فصيلة الكيوراري ؛ وهو من اقوى السموم ، واسرعها تأثيرا . فقد وخز بها فأرا ابيض ، فمات في عشرين ثانية .

وكان آخر الشهود ، ممثل لجنة الخبراء العسكريين الذين درسوا الخرائط والافلام التي عثر عليها بين حطام الطائرة . وقد شهد بأن تلك الخرائط والافلام ، لم تترك لدى اللجنة سوى الاقتناع بأنها كانت لاغراض استطلاعية ؛ فأن الاهداف التي صورتها هي من قبيل الاسرار الحكومية والعسكرية للاتحاد السوفييتي .

في اليوم الثالث والاخير من المحاكمة، ادلى كل من الاتهام والدفاع والمتهم بأقواله الاخيرة. قال المدعي العام: «ان المحاكمة الراهنة لاتعرض الجرائم التي ارتكبها المتهم فقط، بل تكشف القناع، كلية، عن النشاط الاجرامي، العدواني، للدوائر الحاكمة في الولايات المتحدة. وهذه الدوائر هي الملهم، والمنظم الفعلي لهذه الجريمة الفظيعة ضد امن الشعوب وسلامتها». وبعد ان هاجم امتناع الحكومة الامريكية عن الاعتذار عن حادث الطائرة، وتقويضها بذلك مؤتمر القمة، انتقل الى التهمة، فقال انها ثابتة بشكل لايدحض، ومعززة باعتراف المتهم نفسه. ثم راح يستعرض ادلة الاثبات.

وقال ان باورز ليس جاسوسا عاديا، بل مجرما مدربا بعناية. وهو ليس ضعيف الارادة، او اداة عمياء في ايدي وكالة المخابرات والبانتاكون، بل مجرما خطيرا له بواعثه المأجورة الدنيئة.

وفي ختام مرافعته قال: «ايها الحكام الرفاق، ان لدي كل الاسباب لان اطلب الى المحكمة فرض اقصى العقوبة على المتهم. ولكني آخذ بنظر الاعتبار ندامته المخلصة امام هذه المحكمة، فلا اطلب عقوبة الموت، بل الحكم عليه بالحرمان من الحرية مدة خمس عشرة سنة».

وبعد فترة تأجيل قصيرة، اعطي الكلام لمحامي الدفاع، فابتدأ بلهجة المتهيب، مشيرا الى الموقف العسير، المعقد، الذي يجد نفسه فيه كمحام للدفاع... وقال انه من مقتضي مهمته هذه، ان يعرض على المحكمة كل مامن شأنه ان يحسن مصير موكله. وبما ان هذا قد اعترف بجرمه، فأن الدفاع سوف لايتحدى الحقائق والتهم التي قدمت ضده، ولايماري في تقييم الجريمة الذي ادلى به المدعي العام... «ان باورز مقترف لعمل عدواني بشع ضد الاتحاد السوفييتي. ولكن يجب ان يشاركه قفص الاتهام سادته الخفيون: وكالة المخابرات المركزية، وعلى رأسها الن دلس، والعسكريون الامريكيون، ومعهم كل قوى العدوان المشؤومة، التي تسعى لاثارة حرب عالمية جديدة. صحيح ان باورز هو المقترف المباشر، ولكنه ليس المجرم الاصلي، على الرغم من ان هذه القضية تنظر اليوم بأسمه».

ثم راح يوضح ان موكله لم يرتكب جريمته بمحض اختياره، بل بناء على اوامر رؤسائه... وقال انه واثق من ان المحكمة سوف تأخذ بنظر الاعتبار عدم تنفيذ موكله للاوامر المشددة بتدمير الطائرة، وعدم انتحاره بالابرة المسمومة، وكذلك

شهادته الصريحة، الصادقة، التي اداها في اثناء التحقيق. ثم اضاف قائلا: «انا لاادري اذا كان باورز قد ذكر كل الحقيقة، ولكني لااشك في ان الشيء الذي ذكره، هو صحيح».

ثم تناول الجوانب الانسانية للقضية؛ فقال ان المتهم بدأ يشق طريقه في الحياة بين صفوف الطبقة العاملة. وهو الآن شاب غر في ربيع العمر. وحين وقع العقد مع المخابرات المركزية، لم يكن يعلم الغرض الحقيقي من مهمته؛ وهكذا وقع في شباك مغامرة سياسية، واسعة النطاق، عظيمة الخطر. وليس لوقوعه هذا من سبب، سوى الظروف المعاشية في امريكا الرأسمالية - بطالة كبيرة، مستمرة، ومثل اخلاقية مبناها الانانية، وجشع لايشبع. فالذي افسد المتهم ليس البواعث العقائدية، ولا الارادة الشريرة، بل عبادة الدولار!

وختم مرافعته بقوله: «ايها الحكام الرفاق، ان بلدنا لقوي عزيز بشكل لم يسبق له مثيل. فلا يستطيع تجار الحروب، امريكيون او غيرهم، ان يلقوا الخوف في نفوسنا، او يلينوا من قناتنا، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا. ولذلك، اسألكم ان تجعلوا حكمكم اخف مما طلبه المدعي العام. ان قراركم سوف يضرب مثلا جديدا على انسانية العدالة السوفييتية، وسوف يقدم نقيضا حادا لموقف اسياد باورز نحو الانسان، هؤلاء الذين ارسلوه الى موت محقق، وقد ارادوا له الموت فعلا».

وهنا اخبر رئيس المحكمة المتهم؛ بأن له الكلمة الاخيرة. فقرأ هذا الكلمة المكتوبة التالية: «لقد سمعتم ادلة القضية جميعها، وعليكم الآن ان تقرروا مقدار عقوبتي. اني لمدرك لارتكابي جريمة خطيرة، فعلي ان انال عقابها. ولكني اطلب الى المحكمة ان تزن الادلة كلها، فلا تنظر الى ارتكابي للجريمة فقط، بل الى الظروف التي حملتني على ارتكابها ايضا. واطلب كذلك ان تقدر المحكمة انه مامن معلومات سرية قد وصلت الى الجهة التي تنتظرها؛ بل وقعت كلها في ايدي السلطات السوفييتية. واني لافهم ان يراني الشعب الروسي عدوا، ولكني اود ان اؤكد اني لاشعر، ولم اشعر، قط بأي عداء له. فالذي ارجوه ان لاتحكم المحكمة علي كعدو، بل كأنسان لايضمر العداوة لهذا الشعب؛ ولم يسبق ان وجهت اليه اية تهمة، في اية محكمة؛ وهو فوق ذلك نادم من قرارة نفسه اعظم الندم، وآسف اشد الاسف لما فعل؛ واشكركم».

وهكذا جاء الاعتذار، اخيرا، من قفص الاتهام، بعد ان ابته السلطات في واشنطن.

قضت المحكمة اربع ساعات واربعين دقيقة لاتخاذ القرار، ثم تلاه الرئيس. وقد جاء في ختامه: «ان المحكمة قد وزنت جميع الظروف، واخذت بنظر الاعتبار اعتراف باورز بجريمته، وندمه الصادق على فعله. فهي تمشيا مع المبادىء الانسانية الاشتراكية، تحكم عليه بالحرمان من الحرية مدة عشر سنوات، على ان يقضي السنوات الثلاث الاولى في السجن».

قوبل القرار بتصفيق شديد دام دقيقتين. ثم اقتيد باورز الى غرفة مجاورة، حيث سمح له بلقاء زوجته ووالديه.

وفي ذلك اليوم نفسه، اصدر السكرتير الصحفي في البيت الابيض بيانا، مؤداه ان الرئيس آيزنهاور قد تتبع سير المحاكمة عن كثب، وهو يأسف للدعاية السيئة التي اثيرت حول الطائرة، ولشدة الحكم الصادر على المتهم.

ومن المفارقات، ان هذا الحكم الذي اسف آيزنهاور على شدته، قد اثار انتباه الجميع، لعدم تناسبه مع خطورة الجريمة، وارتكابها بمثل هذا الاستخفاف من جهة، ومع الآثار السيئة التي انتهت اليها من جهة اخرى. وعلى ذلك، فقد سرت اشاعة مؤداها انه قد كانت هناك مساومة، يعترف بموجبها باورز بأنه قد اسقط من اقصى ارتفاع، فينال في مقابل ذلك معاملة حسنة، وحكما مخففا. وطبقا لهذه الاشاعة، ان الطائرة قد انخفضت الى ارتفاع اوطأ بكثير مما زعم في المحاكمة، وذلك نتيجة لهبوط فجائي في المحرك النفاث، وهكذا تسنى اسقاطها بسهولة.

وهذه الاشاعة تتفق مع حرص خروشوف على ان يعلم العالم بصورة عامة، والولايات المتحدة بصورة خاصة، ان الصواريخ الروسية قادرة على اصابة هدف متحرك وهو على ارتفاع ٦٨,٠٠٠ قدم. ولكن الذي يدحضها ان باورز قد اكد سقوطه من هذا الارتفاع قبل المحاكمة، وفي اثنائها، وبعدها؛ حيث قال ان المؤشر الخاص قد سجل هذا الارتفاع بكل وضوح، وان المحرك كان يعمل بصورة اعتيادية، حين سمع الانفجار. وقد ايد اعترافه هذا، قائد البطارية التي اسقطت الطائرة، وخبير التصوير الذي فحص التصاوير التي التقطتها.

الفهرست

في الفخ

الحرباء

الجلاد

الرجل الخفي

الخائن

الرسالة السرية

عين الصباح

الافلات من بتروغراد

جاسوسية الفضاء

الكتاب الرهيب

نضال امرأة

رجل الغموض

الصمت ثمنه الموت

عين هتلر الساهرة

السعر - ٢ر ديناران

مطبعة الديواني - بغداد
هاتف : ٨٨٧٦١٩٧